مرت بجانبي

مرت بجانبي

مجموعة قصصية

أحمد معوض

مرت بجانبي

اسم الكاتب: أحمد معوض

تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية

تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات

الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم

الطبعة / الأولى

رقم الإيداع: 23739 / 2018

Arabiclibrary2017@gmail.com

Facebook.com/arabiclibrary2017

01030365801

جميع الحقوق محفوظة

الإهداء

إلى أمي الحبيبة أطال الله في عمرها ..
إلى زوجتي الغالية وأبنائي الأعزاء
(رؤى – آسر – سما – آدم) ..
إلى الصديق الأول في هذه الحياة .. خالي الحبيب ..
إلى إخوتي أسعدهم الله..

مرت بجانبي

في طريق عودتي إلى بيتي سيرا .. مرت بجواري امرأة بدينة .. تعلقت عيوني بها في محاولة لاستكشاف بواطن أنوثة تطل منها ..

لم أرَ من كتلة اللحم التي جاوزتني بقليل أي ملامح لأنوثة أبحث عنها .. دار بعقلي إن كانت فتاة كيف تجتذب رجلا ليتزوجها ؟ وإن كان لديها فكيف تمنحه أنوثتها التي تفتقدها ؟ كيف يشعر بها ؟ أتكفيه انفراجة ساقيها .. تلك التأوهات التي تصدر منها ثم ينتهي الأمر بعدما يفرغ منها أن يُلقي بجسده إلى جوارها ..

تابعت سيري لا تفارق صورتها مخيلتي .. لماذا ؟ لا أدري .. ذلك الوجه المستدير الممتلئ .. تلك الكتلة من اللحم تمشي على ساقين ملتصقتين .. وصلت إلى منزلي الذي أعيش فيه بمفردي .. أعددت بعض الطعام لوجبة خفيفة من العشاء .. فقد تركت عائلتي لأمضي وقتي في هدوء بعيدا عن صخبهم .. أريد العيش بتلك الطريقة حتى آخر العمر.. كما أنني لا أجد لي حظوظا وسط الناس بكآبتهم وطريقة عيشهم وأحلامهم المزعجة .. ذهبت إلى فراشي .. ألقيت بجسدي أنا الآخر على سريري دونما امرأة بجواري .. عادت اليَّ صورتها وما أظنها فارقتني فقد منعتني من الاقتراب من طعامي الذي أعددته .. أشفقت على زوجها من متعة زائفة .. أشفقت

عليه من موت سريع إن اعتلته وألقت فقط بنصف جسدها فوقه فسوف تطبق على أنفاسه سريعا .. كيف تتحرك تلك الكتل من اللحم على فراش لا يحتمل ما لا طاقة له ؟ في الصباح لم أتودد الى الطعام .. أحسست أنه بادلني نفس الشعور فاكتفيت بكوب من الشاي مع سيجارة أو اثنتين لا أذكر .. لم يعد عقلي معي ، عشت معها أيضا هذ الصباح وهي تنهض من فراشها ثقيلة الخطى .. تعد الإفطار لزوجها وأولادهما الذين يماثلونهم في الحجم .. المائدة عليها أصناف شتى من الطعام ، رغم أنها وجبة الإفطار فقط .. بيض ، لبن ، جُبن بأنواعه وغيره وغيره مما أعرفه ولا أعرفه .. الخبز بالوزن لا بالعدد.. بات الناس يأكلون ويأكلون .. حتى في أيام الصيام .. يعدونه نوعا من العقاب .. ما إن يؤذن لالتهام الطعام حتى يبدأون في الانتقام لساعات صيامهم.. وفي مناسبات شتى غيرها يأكلون، حين يفرحون، يحزنون، في صباحهم ومساءهم.. وقت الظهيرة ، فجرا ، ليلا .. في كل أوقاتهم وهم سائرون أو حتى وهم نائمون ..

العيش من أجل الأكل، وليس الأكل من أجل استمرار الحياة .. ثم يصدمون حين تفتك بأجسادهم أمراض التخمة وتوابعها ..

بدأت في اعتزال الطعام كلما حلت صورتها أمامي ولا أظنها تفارقني أو صورة زوجها التي رسمها خيالي رغم أنني لم أقابله ولا أعرف له شكلا ولا حجما ..

قال لي زميل في العمل ذات مرة بعد أن رأى " أكلتي ضعيفة " هكذا وصفها، وقد أدمنت أكواب الشاي وفناجين القهوة " أنت بذلك تقضي على حياتك .. ستموت من الجوع " ، أخبرته " أن الناس يموتون من كثرة الأكل والفقراء يعيشون طويلا " ابتسم لي ولم يعاود الكرَّةَ .. في الصباح اكتفيت بالشاي والسجائر ، وفي المساء أيضا .. اكتفيت بلقيمات ضعيفة كلما تذكرت الطعام .. اشتكى جهازي الهضمي .. شرحت له أن الشكوى من الراحة خير من أن تتحول إلى جهاز متضخم ومُتخم ..

ذات يوم أصابتني اغماءة نقلني المارة من حولي على إثرها إلى المستشفى .. أخبرت الطبيب أنه ربما أصابتني ضربة شمس جراء مشي الظهيرة تحت أشعتها الحارقة .. أخبرني أن جسدي لم يعد يقوى على المواصلة وأن أجهزته ستنهار واحدا تلو الآخر وأن وزني صار أقل من الحد المسموح به .. القلة خير من الكثرة هكذا أقنعت نفسي .. لو خُيرت بين الموت بسبب جسد ضعيف وبين الموت ككتلة من اللحم لاخترت الأولى ..

أخذتني عائلتي للعيش معهم تحت أعينهم ورعايتهم لعلي أعود لسابق عهدي أو استعيد عافيتي .. لكنهم لا يعلمون عنها شيئا ولم يرونها ولا يدرون أنها صارت لي مثلا أعلى وأصبح زوجها قدوتي في الحياة أسير في عكس اتجاههما .. اشعر أنهم يزدادون وزنا .. فيما

يتلاشى لحمي وتبرز عظامي .. تتحرك أجهزتهم رغم صعوبة حركة أجسادها .. بينما أجهزتي تتوقف رويدا رويدا ..

أُجبرت على التوقف عن التدخين فلم تعد يدي تقوى على حمل السيجارة إلى فمي .. نُقلت ثانية إلى المستشفى وضعوا لي المحاليل في سرعة علها تنقذني وتعيد لي وزني .. لا أدري كيف وصلت إلى هذا الحال .. تلك النظرة التي لم تستمر لأكثر من دقائق كانت لي عمرا انقضى في ثوان .. أراها تمضي في حياتها بنفس الوتيرة تأكل بنهم وتطعم زوجها وأولادها في شراهة .. تعتليه أو يعتليها في لحظات المتعة الزائفة دون أن يطبق أحدهما على أنفاس الآخر.. بينما تمر الأيام وأنا راقد في فراشي .. تتلاشى أنفاسي .. بعد أن زهدت عن الطعام وزهد جسدي هو الآخر وما عاد يتقبل تلك المحاليل وظني أنه لم يذق لها طعما ..

سمعت الطبيب ذات مساء يخبر عائلتي بأن جسدي قد إنهار تماما وتوقفت أجهزته عن العمل ، وأن الأمر قد قُضي ولم يتبق لي سوى أيام أو ساعات ، مرت كدقائق بدت لي كتلك التي رأيتها فيها أول مرة حين مرت بجانبي ..

الانسحاب

أثمر زواجنا عن طفل أتى بعد عشر سنوات .. أخبرتها أن ملامحه تشبهها كثيرا .. فرحت وانطلقت به إلى دنيا أخرى .. أحسست في احتضانها له أنها تعاتبه في حنية على تأخر قدومه إليها .. لم يكن تأخر الوصول .. إلا رحيل مُبكر.. عقل ينمو وجسد يأبى .. هكذا أخبرنا الطبيب .. رحل عنا قبل أن يتم عامه السابع .. انتشلنا رحيله من رحلة معاناة رهيبة .. من آلام اليأس إلى آلام الفُقد .. بعدها اختارت غرفته ملاذا لوحدتها .. احترمت تلك الوحدة وأنا اسمع بكائها كلما عُدت من عملي .. كانت تترك الباب مفتوحا .. لعلي أتودد في إلقاء نظرة على الذكريات .. ذكريات المعاناة .. الذهاب من طبيب لآخر.. من مستشفى إلى أخرى .. ثم تملكها اليأس .. فصارت تغلق باب غرفته عليها كثيرا .. وكنت أقف على بابه كثيرا .. اسمع أنينها .. أناجي وحدتها .. تعكس ثقل خطواتي عين قد خبا بريقها .. حتى تلك المرات القليلة التي تفتح الباب اختلس إليها النظر ما بين خروجها حتى عودتها .. توقفت ذات مرة .. أرادت أن تخبرني بشيء .. فرحت لاشتياقي لصوتها وكأن دنياي عاد إليها ربيعها .. كأن أزهاره بدأت تتفتح من جديد .. رأيت وردتي

رغم ذبولها .. تنهض من سُباتها .. هل سنكمل حياتنا سويا .. لكن أوراقها تناثرت بخريف أتى عليها متوحشا برياحه .. حين أخبرتني أنها ترحل بالطريقة التي اختارتها .. إنها في طريقها إليه .. أخبرتها أن الموت كان أفضل اختياراته .. ابتسمت وحدثتني عن طيفه الذي زارها في منامها .. حدثها أنه ينمو بشكل أجمل .. هو يحتاجها لترعاه في سنواته الأولى .. يحتاج إليها .. يريدها بقربه ..

كيف تتركه وحيدا وهو لا زال صغيرا ..

قبلتني وهمست في أذني .. إنها معه الآن .. لا تبك صغيري .. أنا آتية إليك ..

بدا أن طيفها قد انسحب من حياتي .. ألوانه بدأت تخبو .. النور الذي أسير عليه إلى قبلتها قد تلاشى .. محرابها لم يعد يقبل بي راهبا .. فقد أتى ملاكٌ آخر أخذها ورحل ..

الصندوق

ضربت أقدام خيولهم الأرض من تحتها .. تعالت أصوات صهيلها في انطلاقهم نحو قلعته الحصينة .. استقبلهم عند الباب الكبير .. بوجهه المستدير ولحيته السوداء الطويلة .. متكئا على عصاه التي لا تفارقه .. ترجلوا من فوق خيولهم ثم ألقوا بصندوقٍ أمامه .. أخبره كبيرهم بأنهم سيأتمنونه عليه حولا كاملا ثم يستعيدونه بعدها .. سألهم عن محتواه أنكروا معرفتهم بذلك .. اشترط عليهم أن يعرف قبل أن يودعه عنده .. أخبره كبيرهم أن أباهم أوصاهم بإبعاده عنهم حتى يمر عاما كاملا على وفاته .. تلك وصيته ..

تفهم موقفهم ثم عقد معهم اتفاقا .. بأن يبقى معه أحدهم بالتبادل قبيل كل شروق جديد ليرعى شئونه فهو كما يرون رجل طاعن في السن .. ويبدو أن ذاك الصندوق أمانة كبيرة يخشى على نفسه أن يهاجمه أحد فتسرق الأمانة من عنده ..

ابتعدوا عنه بمسافة كافية يتشاورون فيما بينهم .. بينما كان يحدق في الصندوق وفي سر هؤلاء الفتية القادمون إليه من بعيد، أخبروه بالموافقة على طلبه ..

على إثر ذلك قام الأخ السابع وهو أصغرهم سنا بحمل الصندوق إلى داخل القلعة ليبدأ يومه الأول .. ما إن دخل القلعة بصحبة الرجل حتى أرشده إلى حجرة أسفل بهو القلعة .. أخبره بالبقاء بها حتى تبدأ مهمته عند شروق الغد .

بدأ الشاب يومه بأن اتجه إلى الباحة الكبيرة وسط القلعة ، استقبله الرجل مشيرا إليه أن يعد الطعام ويقوم بتجهيزه على تلك المائدة الخشبية الطويلة التي تتوسط باحة القلعة ..

بعد أن فعل ذلك .. بدأت أوامر الرجل تتساقط عليه كالأمطار الغزيرة التي لا تتوقف في ليلة شتاء رعدية .. وجد نفسه قاب قوسين أو أدنى من الهلاك .. حين حل المساء كان قد فرغ من تنظيف الباحة وحجرات الدور الأول .. بعد أن قام بتنظيف الخيول ووضع الطعام لهم ..

بدأ يستعد للنوم .. جهز له الرجل صحنا من الفاكهة واعتذر له عما حمّله من مشقة متعللا بكبر سنه كما يرى .. أخذ معه الصحن إلى حجرته التي سيبيت فيها الليلة ، كانت خالية إلا من فرش صغير وغطاء .. كان يلتهم الفاكهة وهو يفترش الأرض .. دار بخلده وصية والده العجيبة وذلك الصندوق الذي لا يعرفون ما بداخله .. ذلك الرجل العجيب الذي ظهر لهم وأشار عليهم بأن يحفظوه هنا بعيدا عنهم عند صاحب هذه القلعة حين كانوا

يتشارون حول وصية والدهم .. بينما هو كذلك إذ أحس بألم في معدته .. بدا الألم بسيطا لم يلق له بالا .. غير أنه بدأ يقوى عليه .. لم يستطع التجاهل ولم يقدر على الفكاك منه .. راوده شعور بالقيء فحاول أن يفرغ ما في جوفه عله يسترح من ذاك الألم .. لكن على النقيض من ذلك .. بدأ يتلوى يمينا ويسارا ويقبض على بطنه بكلتا يديه .. حاول النهوض مستندا على الحائط بإحدى يديه وهو يعض على شفتيه من قوة الألم الذي بدأ يزحف أعلى معدته .. عاد إلى وضع يديه على بطنه .. وشعر باختناق وعدم القدرة على التنفس .. ترنح ثم سقط على ركبتيه .. أعقبها تقيؤه للدم بغزارة حتى سقط على وجهه ممدد الجسد بلا حراك ..

***

وصل بقية الإخوة عند باب القلعة قبيل الشروق بقليل .. طرقوا الباب .. فتحه لهم .. رحب بهم وأدخلهم .. سألوا عن أخاهم .. أوصلهم إلى حجرته التي قضى فيها ليلته .. فتح أحدهم باب الحجرة .. فلم يجد بها أخيه .. أخبر البقية فهرعوا إليه .. وجدوا الحجرة خالية تماما .. عادوا إلى الرجل .. سألوه عن أخيهم .. أخبرهم أنه دخل حجرته لينام ثم تركه وصعد إلى الأعلى لينال قسطا من النوم هو الآخر .. ثم استيقظ من نومه على صوت

طرقهم للباب .. أفاقوا من ذهولهم حين سأل أخوهم الأكبر عن الصندوق .. دلهم على مكانه .. وجدوه على حالته .. عادوا للباحة من جديد وجلسوا على المائدة .. أخبرهم أن اليوم الثاني أوشك على البدء وعليهم إما أن يعودوا أدراجهم ومعهم الصندوق ، أو أن يرحلوا ويتركوا واحدا منهم لإكمال الاتفاق ..

عاودوا السؤال عن أخيهم .. هز كتفيه بأنه لا يدري .. ثم أجاب بأنه ربما يكون قد رحل إليهم وسلك طريقا آخر..

لم يجدوا بُدا من ترك أخاهم الأكبر من سابقه بعض الشيء تنفيذا للاتفاق على أن يقوم اثنان منهم بالبحث عنه في أرجاء البلدة التي يقيمون بها .. على أن ينتظر البقية عودته .. ثم انصرفوا على أمل أن يجدوا أخاهم قد عاد للمكان الذي يبيتون فيه حتى ينتهي الاتفاق ..

أشار الرجل إلى الأخ الثاني بأن يومه قد بدأ .. عليه أن يستعد لمعاونته .. ثم دارت الدائرة من جديد ، بدأ يحذو حذو أخيه .. حتى انقضى اليوم وخيم الليل .. حان موعد النوم فدلف إلى نفس الحجرة .. اندهش عندما وجد بها فرشا صغيرا وغطاء .. فقد دخلها هو وإخوته وكانت خالية تماما .. راودته الأسئلة واجتاحته المخاوف .. أحس بقشعريرة تسري في جسده حول مصير أخيه الأصغر..

بينما هو كذلك إذ أحس بحركة ما ، سمع صوتا أشبه بفحيح أفعى .. تلفت من حوله في حركة دائرية حتى وجد أفعى تخرج من إحدى زوايا الحجرة متجهة نحوه رافعة رأسها وزاحفة على جسدها اللزج .. تراجع في خطوات بطيئة مذعورا .. ينظر إلى زحفها نحوه وهي تخرج لسانها المشقوق وتسحبه في حركة سريعة مُصدرة فحيحها المخيف .. حاول أن يتحسس الباب بيده دون أن يبعد بصره عنها ، وصلت يده إلى رتاج الباب .. حاول فتحه .. إلا أنه لم يفتح .. انتابت حلقه غصة وأحس بالمرار وساوره شعور مخيف بمكيدة الرجل نحوهم .. يقوم باصطيادهم واحدا تلو الآخر للاستيلاء على الصندوق .. لكن لماذا ؟ هو لا يدري ما بداخله ، هم أيضا لا يعرفون ، تبا لذلك الصندوق .. هاله كيف واجه أخاه الأصغر هذا المصير.. كيف ينقادون إلى حتفهم بهذه السذاجة ؟ هم الذين ارتأوا مماطلته يوما بعد يوم حتى يتوصلوا إلى حل بشأن وصية أبيهم وتعلقها بذلك الصندوق اللعين قبل أن ينقضي العام دون الدخول في صراع مرير فيما بينهم .. خلع قميصه في هدوء لعله ينقض عليها بغتة ويشل حركة رأسها التي بدأت تتمايل يمينا ويسارا في محاولتها هي الأخرى لانقضاضه سريعة على فريستها يساعدها في ذلك اقتراب المسافة بينهما .. بدأت رأسها في التضخم وفتحت فاها بشكل مخيف وظهرت أنيابها استعدادا لغرزها في

جسده .. وفي حركة مباغتة تسمر لها ذهولا .. ارتفعت الأفعى بكامل جسدها واقفة على طرف ذيلها حتى أصبحت تضاهيه طولا ثم انقضت فجأة على جانب عنقه وغرزت أنيابها في قوة والتف بقية جسدها حول رقبته وقد كتم التفافها حول عنقه صرخاته وهوى على وجهه صريعا .. عادت بعدها الأفعى من حيث أتت ..

قبيل الشروق بوقت كاف كانت الحجرة خالية تماما من كل شيء ..

وصل الإخوة إلى باب القلعة كعادتهم .. استقبلهم الرجل بابتسامته .. لكنهم قابلوها بغلظة بدت في صوتهم حين أخبروه بأن أخاهم الأصغر لم يعد إليهم حتى الآن .. الناس في البلدة لم يروا أثرا له .. أجابهم في برود بأنه ليس بمسئول عنه .. ثم طلبوا منه إحضار أخيهم الثاني .. أفهمهم بإشارة من عصاه بأنه بالداخل في نفس الحجرة .. دلف أحدهم إليها بخطوات يشوبها الحذر والحيطة، لا يدري لماذا اعتراه الخوف؟ لم راودته فكرة اختفاء أخيه كسابقه؟ تحرك نحو الحجرة.. ثم فتح بابها ببطء شديد ..

وقف الإخوة الأربعة في صمت تام ينتظرون عودتهما .. يرمقهم الرجل بعينيه التي يطل منها غضب شديد .. ممسكا بعصاه في قوة .. ما هي إلا دقائق حتى عاد إليهم أخاهم مذعورا يعدو في سرعة ..

ما إن وصل إليهم حتى بادروه بالسؤال .. أومأ برأسه بالنفي وهو يحاول التقاط أنفاسه ..

تطلع الجميع إلى الرجل في نظرات يملؤها الغضب والحنق على ما يحدث لهم .. بينما لا يذهب صمته منتظرا مبادرتهم بالحديث ..

بدأ أكبرهم سنا بالحديث مشيرا إليه بأن الاتفاق قد انتهى وعليه أن يحضر الصندوق إليهم في الحال .. أجابه بالنفي مضيفا إلى أنه ليس لديه أية صناديق يعيدها إليهم .. رد كبيرهم بأنه لم يحافظ على حياة أخويه ولا يدرون عنهم شيئا ، هز كتفيه بأن الذنب ليس ذنبه ولا يتحمل أدنى مسئولية عن ذلك .. صرخ فيهم بأن يبحثوا عنهما أنى شاءوا ، بأن يدخلوا القلعة ويقلبوها بحثا وتنقيبا إن أرادوا ..

عقد أكبرهم حاجبيه في ضيق واقترب منه في بطء .. أنذره بلهجة حازمة بأن الليلة سينتظرونه آتيا إليهم بالصندوق وأن يُعيد إليهم الأخوين .. ثم عاد إلى فرسه وامتطاها كذلك فعل بقيتهم ثم نظر إليه وهو يجذب لجام فرسه ويوجهه إلى طريق العودة مضيفا بأنه إن لم يجب طلبهم سيأتون إليه بما لا يطيقه ..

انطلقوا عائدين إلى البلدة .. بينما لم تفارق عيناه انطلاق خيولهم حتى توارت واختفت أسفل التل الواصل بين قلعته وبين البلدة ..

انفصل أحدهم بجواده منطلقا إلى بلدته .. بينما تابع الآخرون مسيرتهم حتى وصلوا إلى مشارف البلدة التي يقطنون بها .. فور وصولهم بدأوا يجمعون الناس من حولهم يروون لهم قصتهم مع ذلك الرجل منذ وصولهم حتى هذه اللحظة .. بعدما فرغوا من روايتهم انصرف الناس من حولهم .. اندهشوا لانصرافهم على هذا النحو دون أي ردة فعل .. قليل منهم من قام بنصحهم بالعودة من حيث أتوا ..

تركوا الناس وانطلقوا إلى دارهم .. منتظرين عودة أخيهم من بلدتهم بأخبار تثلج صدورهم ، في الوقت نفسه كانوا في انتظار أن يأتي الرجل إليهم ليعيد لهم الصندوق غير عابئين بتحذيرات الناس من حولهم .. ارجعوا خوفهم منه إلى بطشه بهم أو تهديدهم بأي شكل ، لكنهم غير الناس لا يخافون منه ولا من بطشه ولا من قوته في مكانه وتحصنه بقلعته ، كل ما يخشونه هو الصندوق إرث عائلتهم ووصية والدهم .. اتفقوا في حالة إن لم يكن الصندوق بحوزتهم هذه الليلة فسوف يهاجمون قلعته قبيل الشروق ، عندما يأتي أخوهم بالمزيد من الرجال والعتاد ويحصلون على

الصندوق ، وإن بدت منه مقاومة فسوف يقتلونه لا محالة .. بادر أحدهم بالتنبيه عليهم بما ذكره أحد الأشخاص عن تلك العصا التي لا تفارق يده .. كيف أنها مصدر قوته .. أعدوا خطتهم على ضرورة التفريق بينه وبين عصاه ..

انقضت الساعة تلو الأخرى ، بدا أن الليل يسدل أستاره على البلدة رويدا رويدا .. تبقت على مقياس حساباتهم ساعتان قبل عودة أخيهم من بلدتهم ..

مر الوقت في بطء شديد تلاه القلق الذي بدأ يرتسم على وجوههم وفي ذهابهم وإيابهم داخل الحجرة التي تتوسط الدار .. اتجه أحدهم إلى الباب ، وقف خلفه ثم أسند جبهته عليه منتظرا طرق أحدهم عليه .. بينما اتجه آخر إلى النافذة الصغيرة على يمين الباب تبعد عنه الشيء اليسير .. قام بمسحها بكف يده محاولا استطلاع ورؤية ما لا يمكن رؤيته في هذا الظلام الحالك .. بينما كان أخوهم الأكبر جالسا في هدوء ، مستغرقا في تفكير عميق ، عازما في قرارة نفسه على العودة بالصندوق بأي حال من الأحوال، مهما كلفه ذلك من ثمن ..

***

دار الرجل حول الصندوق مرات عديدة يحاول استكشاف طريقة لفتحه .. كلما اقترب منه كلما ازداد توهجا .. ضرب عليه بعصاه ضربات قوية تارة وتارة أخرى طرق عليه طرقا خفيفا .. من منهم يعرف طريقة لفتحه .. تسائل عن أولئك الأخوة .. من منهم يعرف ما بداخله .. في ظنه أن من تبقى منهم حيا يعرف طريقة لفتحه .. يعرف ما بداخله .. لم يصدق هرائهم عن إرث العائلة ووصية الوالد .. يجب فتح الصندوق ، الحصول على ما بداخله .. جثى بركبتيه على الأرض مقتربا منه أكثر فأكثر.. توهج الصندوق في شدة جعلته يغلق عينيه لوهلة .. هو لا يهاب أي شيء هل يهاب بعض التوهج الصادر منه .. أثار فضوله وشكوكه حولهم .. في ظنه احتوائه أمرا عظيما .. لماذا يعتقد أن فتحه سيكون ذا صعوبة بالغة ؟ ربما هي أبسط مما يتخيل ، نحى عصاه جانبا .. انتصب بنصف قامته أمام الصندوق .. بسط يديه ومدهما إلى الأمام حتى أصبحت فوق الصندوق تماما .. ثم قرب كلتا يديه ببطء ، في اقترابهما يزداد توهجا .. وضع كل يد على طرفي الصندوق من اليمين واليسار ومررهما عليه حتى التقتا في المنتصف تماما .. عندها بدأ الغطاء يرتفع رويدا رويدا .. يزداد التوهج وتزداد الرؤية صعوبة .. كان على وشك أن يغلق عينيه لكن التوهج بدأ يخبو قليلا .. بدا كأن الضوء ينتشر في الحجرة ..

التفت ورائه يستطلع الأمر وهو يتحسس موضع عصاه .. إلا أنه قبل أن يكمل استدارته تلقى ضربة قوية على صدغه الأيسر أفقدته الوعي ..

***

أفاق الرجل من اغماءته، وجد نفسه مُقعدا على كرسي يتوسط المائدة التي تقبع في الباحة الخارجية لقلعته .. محاطا بعشرات الرجال يقفون على أهبة الاستعداد والانقضاض عليه إذا ما بدرت منه حركة مريبة .. أيديهم قابعة على مقابض سيوفهم في أغمادها .. رُغم أن يديه كانتا أمامه مكبلتين بقيد حديدي تربط بينهما سلسلة يبلغ طولها انفراجه يديه .. استطاع أن يتبين وجوه الإخوة الخمسة جالسون حول المائدة على يمينه ويساره .. كان الصندوق المتسبب في ما آل إليه مفتوحا على آخره ، موضوعا أمامه فوق المائدة يتوسط المسافة بينه وبين أخيهم الأكبر، تبين أن بداخله وسادة مخملية يحتل وسطها تاجا ذهبيا قل توهجه بعض الشيء بسبب ضوء النهار..

***

عاد الأخوة إلى ديارهم محاطين بالرجال وبحوزتهم الصندوق ، يملأ نفوسهم الحزن ، ويثقل كاهلهم هم الفقد .. حين وصل الجمع إلى البيت الكبير اصطف الرجال حوله أولا ، بينما ترجلوا هُم من فوق صهوة جيادهم ، دفعوا الباب أمامهم في قوة ، يحمل اثنان منهما الصندوق الذي كان يتأرجح بينهما حتى وصلوا إلى خزانة كبيرة فألقوه داخلها .. بعدها انزوى كل منهم في حجرته يحمل أوجاعه وهمومه حول ما حل بهم في الأيام الماضية ..

***

غريب عن هذا المكان ، عابر يمر ، طاف بكثير من البلدان ، حتى وصل إلى مشارف القلعة ، دار حولها حتى وصل لبابها الكبير ، وجده مفتوحا على مصراعيه ، تقدم بخطوات وئيدة يشوبها الحذر حتى وصل للمائدة التي تتوسط باحة القلعة تماما ، وجد على مرمى بصره رجلا وحيدا يرأسها مقيد اليدين ، تطل من عينيه نظرة عميقة باردة أصابت أعماقه بالهلع ، تحثه على الابتعاد والهروب فورا ، غير أن وجوده على تلك الهيئة باعث على الفضول ، يحث على الاقتراب والاقتراب كثيرا ..

***

توجه الإخوة جميعا نحو اليهو الواسع داخل البيت الكبير ، عند اقترابهم علت الدهشة وجوههم ، حيث كان يتوسط اليهو أخاهم الأكبر واقفا في شموخ وكبرياء ، واضعا على رأسه ذلك التاج متوهجا في ظلمة الليل .. عض أحد الأخوة على شفتيه في امتعاض وحرك رأسه يمينا ويسارا مبدياً أسفه واعتراضه على ما فعله كبيرهم، بينما ذكَّره آخر بوصية الوالد والابتعاد عن التاج المدة الزمنية المحددة، عقد كل واحد من الاثنان الباقيان ذراعيه أمام صدره .. بينما تطلع الرجال حولهم إلى بعضهم البعض ثم ما لبثوا أن التفوا حول الأخ الكبير.. بينما طأطأ هو رأسه إلى الأسفل ثم مد إحدى ذراعيه باسطا كف يده ، مشيرا إليهم أن هذا قرار نهائي لا رجعة فيه قائلا بصوت هادر قوي "فلتذهب كل وصايا العالم إلى الجحيم" ..

***

أسرع بجواده يطوي الأرض طيا لاسترداد ما بداخل الصندوق ، حين وصل إلى هدفه الأوحد وهو البيت الكبير .. ترجل من فوق فرسه .. رفع أطراف عباءته السوداء من جهة اليمين نحو كتفه الأيسر وتدلت خلف ظهره لتضفي عليه مهابة ورهبة ، مد عصاه أمامه ثم تقدم نحو الباب في خطوات يملؤها الثقة متحركا بدافع الشغف يتبعه خادمه الجديد في تردد وخوف .. دفع الباب بعصاه

.. تحرك داخل أرجاء البيت الذي كان يغلفه الصمت المميت وصل إلى أطراف البهو الواسع .. اصطدمت قدمه بشيء ما .. تحركت عيناه صوب ذلك الشيء الملقى على الأرض فإذا بجثة مغروز بصدرها سيف لا يظهر منه إلا نصفه وغمده ، مغطاة الوجه بوشاح تدلى من خوذته ، أشاح ذلك الغطاء بعيدا ، كانت الجثة تنتمي لأحد الأخوة .. عبر الجثة ومن خلفه تابعه ، وصلا إلى منتصف البهو الذي تحول إلى ساحة قتال تناثرت فيه بقية جثث الأخوة واحدة تلو الأخرى حتى وصل بعينه إلى كبيرهم .. وجده جالسا في مهابة وحوله ما تبقى من الرجال يحرسونه في ثبات تام واضعا التاج فوق رأسه .. لا زال فيه بعض الوهج الذي بدأ ضوء الصباح الخافت يقلل من توهجه .. تحرك نحوه بخطوات واثقة ، قبل أن يصل إليه أخرج صُرة كبيرة وألقى بها جانبا .. تحرك الرجال نحوها، إلا واحدا منهم شهر سيفه إلى الأعلى متجها بنصله الحاد إلى رقبة الكبير مبدياً له ابتسامة ساخرة معتذرا عما سوف يفعله. لم يبادر الأخ الكبير سوى باندهاشه وقد اتسعت حدقتا عينه من الذهول جراء فعل حارسه ، حيث أنهى كل ذلك بضربة قوية من سيفه أطاحت برأسه بعيدا ، أعقبتها خطواته نحو التاج ومد يده نحوه فالتقطه .. ثم جثى على ركبة واحدة ومد يده بالتاج نحو الرجل الذي تحرك في ثبات تام ثم جذبه من يده في قوة، فور

ملامسته توهج فجأة على غير العادة ثم عاد إلى طبيعته .. وضعه على رأسه ثم ألقى نظرة سريعة على جثث الأخوة، علت وجهه ابتسامة ثم انطلق عائدا على جواده إلى قلعته بعد أن التف حوله الرجال من كل جانب، يتبعونه بعد أن امتطوا خيولهم واحدا تلو الآخر حيث نزلوا إلى مشارف البلدة كأنهم في موكب مهيب .. التفتت أعين الناس حيث الرجل على صهوة جواده ومن فوق رأسه التاج وقد طأطأ كل واحد منهم رأسه حين مر به معلنين ولائهم لصاحب التاج ..

القصة الأخيرة

دون السطر الأخير في قصته .. أعاد قراءتها .. قام بضبط بعض الكلمات والمعاني .. أعطتها رونقا جميلا .. يحب وضع النقاط كفواصل .. كتبها على حاسوبه الخاص .. راجع كلماتها وهو يكتب .. أنهى كتابتها وتنسيقها .. قرأها ثانية .. حذف بعض الأحرف والكلمات .. قرأها ثالثا .. ثم قام بطباعتها ليقرأها على الورق .. القراءة من الورق أفضل بكثير هكذا يظن .. فالعين تبصر وتستكشف على الورق ما لا تراه على الشاشة الصماء .. حرف زائد ، همزات ، كلمات متلاصقة لا تعطي معنىً واضحا .. بعد أن أنهى قراءتها ورقيا وقام بإجراء التعديلات المطلوبة .. طبعها ثانية .. وقرأها مرارا وتكرارا .. حتى أوشك على حفظها ..

كتب غيرها من قبل .. لكنه رأى أن هذه القصة تختلف عمن سبقها .. أرسلها إلى صديقه المقرب عن طريق "الفيسبوك" أبدى إعجابه الشديد بها .. أرسلها إلى مديره في العمل .. أثنى عليها وأضاف "أن لها ابعادا نفسية واجتماعية منعكسة على شخصية البطل الذي ضحى بالكثير من أجل حبيبته" .. نظر إلى الثلاث ورقات المطبوعة .. قرأها من جديد .. يستشف ما سطره له مديره

.. هو قصد ذلك لكنه لم يستطع التعبير عنه .. في أوقات كثيرة لا يجيد فن الكلام ..

في الصباح ذهب إلى عمله وفي طريقه قرأها .. دخل إلى مكتب مديره .. الذي حدثه كثيرا عن قصته وأخذ يشرح ويحلل ويفسر .. يستمع ويملأه الزهو والإعجاب .. هو يعرف أن هذه الأشياء لا تقع ضمن دائرة المجاملات .. كما أن مديره له باع طويل في الكتابة خاصة القصة القصيرة .. فهي بيت القصيد عنده .. هي مدخله إلى عالم خيالي بعيدا عن هذا الواقع .. ينسج بأفكاره أشخاصا ودنيا يحركها كيف يشاء .. كما أن له مؤلفات قصصية غزت عالم الأدب وصار له اسمه المعروف ..

انصرف إلى مكتبه .. لم يفعل شيئا يومها سوى إعادة قراءتها المرة تلو الأخرى .. ثم أرسلها لبعض أصدقائه وأقاربه .. عاد إلى بيته .. قرأها أيضا أثناء عودته .. بدل ملابسه وأعد لنفسه الطعام .. جلس يأكل بينما يقرأ ويعيد قراءة الثلاث ورقات .. راودته فكرة أخرى .. حاول أن ينسج خيوطها ويبدأ الكتابة .. لكنه عاد لقراءة قصته .. اتصل به بعض أصدقائه يبدون إعجابهم بقصته .. مازحه بعضهم بأنه عمَّا قريب سيكون من ضمن مشاهير الأدب والمؤلفين العظام إن سار على هذا النهج .. ابتسم وبادلهم إعجابهم ثم شكرهم على ذوقهم ورقتهم في الحديث ..

بعدها قام بتصفح حسابه على "الفيسبوك" ودون على صفحته بعضا من سطورها .. جاءته إشعارات الإعجاب بتلك السطور وبعض كلمات الثناء والمديح ..

عاد يقرأها من جديد .. أحس هذه المرة بأنها أصبحت كظل لا يفارقه ..

بل إن الظل أحيانا يفارق صاحبه في الظلام .. هي لا تفارقه منذ أن خط سطورها .. ففي جيبه نسخة يقرأها كل وقت وحين .. في عقله يحفظ الكثير من كلماتها ..

منحها لقب حبيبته التي لم تمنحها له الدنيا سوى بضعة سنوات .. ثم تركته في يأس من ضيق الحال .. كم تمنى أن تكون حبيبته بجواره الآن .. تشاركه أوقاته .. تشاركه سطوره التي يكتبها من حين لآخر.. له صديقات لكن الحبيبة شيء آخر.. فاتخذ قصته حبيبة له وعشيقة .. باتت ورقاتها الثلاث لا تفارق نومه .. ذهابه .. عودته .. تشاركه كل أوقاته ، اندهش من ذلك وسأل نفسه لقد كتب غيرها وغيرها سابقا .. لكن لماذا هذه القصة تحديدا؟ لم يجد تفسيرا سوى أن ذلك هو الحب .. لا يعرف كيف ولماذا .. لا يهتم بالتفاصيل سوى في لحظات فراق المحبين فيكتشف كل منهما عيوبا لم يراها من قبل .. لكنه لن يفارقها ولن تفارقه .. لم ولن يرَ

أية عيوب بها .. بدأ يشعر بالغيرة عليها .. فلم يعد يرسلها لصديق أو قريب ..

في إحدى المرات أثناء تصفحه لمواقع الإنترنت .. ظهر له إعلان عن مسابقة للقصة القصيرة تصفح ذلك الإعلان وقرأه جيدا .. جوائزه المالية لا بأس لها .. إن فاز بأحد المراكز الثلاثة الأولى .. وحتما سيفوز بالمركز الأول ويسدد ما عليه من ديون .. هذا أول ما جال بخاطره ، سجل بياناته بالموقع وأرسل قصته بعد تردد مرير..

بدأ يتصفح الموقع كثيرا .. لم يرَ فيه تحديدا لموعد إعلان الفائز..

ذات مساء بعد عودته إلى منزله .. وصلته رسالة تُخبره سطورها بأن قصته مرشحة للفوز بإحدى المراكز الأولى .. وعليه الاتصال برقم مدون في آخر الرسالة ..

اتصل من فوره .. رد عليه شخص بدا وقورا في لهجته .. انبأه بضرورة الحضور مساء الغد وسيرسل له رسالة بالعنوان ، انتهى الاتصال .. لم يستطع النوم ليلتها من فرط السعادة والفرح .. استأذن في عدم الذهاب الى العمل .. عليه أن يستعد جيدا .. أن يتأنق بصورة لم يعهدها من قبل .. كأنه ذاهب الى حفل زفافه .. وأن حبيبته بانتظاره كي تتباهى به أمام العالم ..

وصل إلى العنوان المنشود في الموعد المحدد .. استقبله رجل في بداية العقد الرابع من عمره .. أرشده إلى مكتبه وبعد أن جلس لاحظ أن الفيلا على اتساعها لا تحتوي أحدا سواهما .. مما آثار شكوكه .. أخرج الرجل شيكا من درج مكتبه وناوله إياه .. تناول الشيك قرأ الرقم في سعادة بالغة .. لكن الرقم ضعف مبلغ الجائزة الأولى .. أين الحفل الذي توقعه لإعلان فوزه؟ استفسر عن هذا .. اخرج الرجل ورقة أخرى .. أخذها وقرأها في ذهول .. ما هذا؟ تنازل عن ماذا؟ قصته .. حبيبته .. وضع الورقة جانبا لكنه لا زال ممسكا بالشيك .. سحبه الرجل من يده وأعطاه واحدا غيره .. امسكه على مضض .. لاحظ أنه ضعف المبلغ السابق .. تذكر حبيبته التي لا تفارقه .. تذكر الديون التي تثقل كاهله .. كل هذا يمكن تعويضه .. لكن من أين يأتي بحبيبة أخرى تشاركه حياته .. أغراه المبلغ ، إضافة إلى أنه بإمكانه كتابة غيرها وغيرها .. سيكونون بدورهم أصدقاءه وأحبابه .. هل يبيع ويخون فجأة بعد كل هذا العشق ..

استفسر عن ذلك .. لماذا قصته بالتحديد؟ أخبره الرجل بأن هناك من اعجب بها ويستطيع الاعتناء بها أفضل منه .. له فرص في تحويلها إلى رواية أو فيلم سينمائي .. أما معك فليس لها مستقبل ..

وضع الشيك في جيبه .. وقع على ورقة التنازل .. انصرف على الفور ..

وقف قليلا في طريق عودته .. اخرج ورقاته الثلاث .. مزقها .. ثم نثر أشلائها في الهواء ..

في زمن الحرب

انطلق يعدو بأقصى سرعته .. في محاولته الابتعاد عمن يطارده .. في ظنه وهو يعدو أنه صيد هزيل .. فقد ترك لهم وطنه يتناحرون عليه هم وكل فصائل الدنيا .. ترك ورائه عائلته .. حياته .. ذكرياته .. حتى المستقبل لم يعد يملكه ..

أمَّن زوجته وطفليه .. اطمأن عليهم في أحد المخيمات المنتشرة على حدود متاخمة لبلده .. بعد أن تساوى بنيانها بالأرض جراء قصف الطائرات والمعارك التي دارت في كل حي وشارع ..

وعد زوجته بالعودة إليها .. لكن عليه أن يرجع لإنقاذ أخيه الذي يصغره بثلاثة أعوام .. تمنت أن يعود إليها ولطفليها سالما .. سألها دعواتها بأن يكون أخيه بخير.. فهو الوحيد الذي تبقى حيا من عائلته .. بعد أن سقط بهم البيت ودفنوا تحت أنقاضه .. اكتفى بتلك الأنقاض لتواري سوءاتهم .. استحى الغراب أن يأتي إليه مكتفيا بالنعيق فوق أشلاء ما تبقى من جثثهم ..

تذكر عودته إلى أبويه وأخيه بعدما انتقل بزوجته وطفليه إلى بلدة آمنة قبل أن تغزوها الحرب .. رأى عند وصوله البيت يتهاوى أمامه .. رأى أخوه عائدا يركض نحو البيت المتهالك بعيون ممتلئة

بالدموع .. أسرع إليه يحتضنه وجذبه من يديه عائدا إلى تلك البلدة .. في ركضهما سويا للخروج من تحت النيران التي تنطلق من كل اتجاه .. ترك أخوه يده واتجه نحو طفلة سمع بكائها وسط جثث وأشلاء متناثرة .. انتشلها من مكانها عائدا إليه ، إلا أن بعض الطلقات فرقت بينهما فعاود الرجوع حيث كانت الطفلة واختبئا سويا .. اختفى أخوه عن ناظريه .. بعد أن هدأت الفرق المتناحرة فيما بينها .. خرج من مخبئه ببطء يستطلع الأمر لعله يجد أخيه .. إلا أن المكان من حوله كان خاليا من كل شيء إلا من رائحة الموت حيث الجثث الملقاة والمبعثرة هنا وهناك .. المنازل التي هوت فصارت حجارة صماء خلت منها الحياة التي كانت تعج بها منذ لحظات ..

انتبه من ذكرياته إلى صوت طلقات تترامى إلى مسامعه وتقترب أصواتها منه رويدا رويدا ، بحث عن مكان يختبئ به وقد اقتربت الأصوات .. أحس بقربها كثيرا من مخبئه الذي عثر عليه في سهولة وسط الأنقاض المترامية .. حديث غير مفهوم وصل إليه .. تكبيراتهم لله التي تعلو مع أصوات الرصاص التي تنطلق في اتجاه مقابل يصدر منه أصواتا شبيهة وتكبيرات مختلطة بأصوات الطلقات .. وجد أنه في منتصف المسافة بينهما .. حاول أن يتبين ملامحهم ووجوههم .. فنظر إلى يمينه ويساره .. دقق النظر علَّه

يتبين ملامح اختلاف فلم يجد ما يستطيع أن يفرق به بين الفريقين أو يجد طرفا منهما يعرفه فيحتمي به ويساعده على الهرب .. وجد أن الملامح واحدة .. الملابس واحدة .. السلاح واحد وإن اختلفت الجهة التي ينطلق منها أو إليها ..

كتم دهشته عندما رأى أخيه يتوسط أحد الفريقين المتقاتلين .. يقاتل في ضراوة شديدة .. خفض رأسه ثانية ثم عاد إلى مكانه مُسندا ظهره إلى كتلة خرسانية من بين الأنقاض وانسالت الدموع من عينيه .. كيف أقنعوه بحمل السلاح والقتال في معركة لا نصرفيها ؟ من أجل ماذا يحمل السلاح ؟ ومن أجل من يقاتل ؟ .

بين تردده في كيفية إنقاذه والعودة به وهلاكه إن فعل ، وبين العودة إلى أسرته التي في انتظاره .. يأملون عودته وحمايته لهم .. عله يجنبهم مصير بائس .. اتخذ قراره على العودة إليهم .. انطلق من مخبئه إلى الجهة الأخرى .. إلا أن هدوء النيران بين الفرقتين اللتان آثرتا توقف القتال ، ليتحين كل منهما فرصة للنيل من غريمه ، أدى لوصول وقع أقدامه فوق الأنقاض إلى مسامع جموعهم فتحركوا نحوه .. بدأت بينهم وبينه مطاردة شرسة .. يطلقون وابلا من الرصاص حوله علّه يفزع ويبادر بالاستسلام .. هم يريدونه حيا ، صيدا ثمينا ، ظنا منهم أنه جاسوس لصالح طرف

ثالث أورابع أوحتى لقوات الجيش التي لا تتركهم يهنئون بما حققوه من مكاسب على وجه الأرض ..

انطلق يعدو بأقصى سرعته .. يسابق عدوهم وسرعة نيرانهم .. الكل يجري من خلفه .. وتساءل أين صراعهم ؟ أين النيران التي كانت تتبادل أدوارها فيما بينهم ؟ لماذا توجهت نحوه الآن ؟ .. هو وحده .. فماذا يخيفهم منه؟

في عدوه هربا منهم .. استدارليرى المسافة بينه وبينهم .. تعرف عليه أخوه فتوقف عن إطلاق النيران .. تأخر في سباقه معهم .. لمحه أحد رفقائه .. سأله عن السبب .. أخبره بأن المُطارد هو أخيه الاكبر.. أمره بمتابعة السير.. أخاه الآن أصبح عدوا .. فتحرك ببطء ثم رفع سلاحه وأطلق نحو الفريق الآخر فبادره أفراده بالرد عليهم .. توقف هو بعد أن لاحظ أن وابل النيران لم يعد يحيطه .. نظر خلفه ثانية .. فوجد أن الصراع قد احتدم بينهما ثانية ..

رأى أن أخاه بدا في مرمى النيران ، غدا صيدا سهلا .. تحرك نحوه .. فأشار إليه بأن يبتعد وأن يغادر المكان سريعا .. بينما كان يحثه على الهرب تلقى عدة رصاصات استقرت في جسده .. توقف مذهولا .. رأى رفقائه يسحبونه بعيدا عن الساحة التي سقط بها .. تردد قليلا .. ثم آثر العودة إلى طفليه حيث تيقن من رحيل ما عاد لأجله ..

ما إن اقترب من المخيم في المساء حتى أوقفته دورية من دوريات الحدود .. أفهمهم أن زوجته وطفليه في ذلك المخيم.. نعتوه بالجنون حين عرفوا أنه غادر لإنقاذ أخيه .. علق أحدهم بأنه محظوظ بعودته سالما من الجحيم ..

وصل إلى المخيم .. عانق أسرته حينما خرجوا من خيمتهم الخاصة مستقبلين عودته سالما .. نظرت إليه زوجته وفي عينيها سؤال يعرفه جيدا .. أخبرها بأنه لم يعثر عليه .. ارتأى أن يدفن السر بداخله كما تدفن الأنقاض الجثث التي تتساقط من تحتها ، ربما يحكي لطفليه حين يكبرا عما حدث .. سيخبرهما عندما يكون لهم وطن يتحاكون فيه عن ذكرياتهم في المخيمات .. تحت القصف وعن زمن الحرب ..

أعطته زوجته قطعة من الخبز تسد جوعه الذي لاقاه في رحلة المعاناة التي عاد منها ، طمأنته أنه لا زال حيا ، حتما سيلتقي به يوما ما .. تناول منها قطعة الخبز ثم أخذ يتجول في المخيم .. تنامى إلى مسامعه صوت التلفاز من غرفة وحدة الأمن المسئولة عن المخيم .. توجه إليها واختلس النظر إلى شاشة تتوسط حائطا مواجها لنافذة الغرفة .. كان على الشاشة صورا متفرقة للدمار والصراع اللذان حلا بوطنه الممزق .. على أيدي فرق متناحرة متشابهة أتت من هنا وهناك .. بعضهم لا صلة تربط بينه وبين

وطنه .. لا يعرف لماذا يقتتلون بينهم؟ ولماذا تتربص كل فرقة منهم بالموت للأخرى؟

في الشريط الإخباري أسفل الشاشة قرأ خبرا كان نصه " أن الرئيس باق في منصبه ليرعى مصالح الشعب والوطن " ..

ثلاثون يوما

أعاد ما تبقى من راتبه إلى جيبه .. بالكاد يكفيه .. ينتهي قبل أوانه .. لا يكمل الثلاثون يوما .. لا يطمح أن تكون فترة صلاحيته ثلاثة شهور أو ما شابه .. فقط ثلاثون يوما هي كل آماله .. كل شهر يردد هذا الكلام .. متى ينتهي ..

وضعت له زوجته كوب الشاي الذي طلبه بينما يعيد حساباته ويراجعها .. نظر إليها وقد انصرفت لتكمل بقية أعباء البيت التي لا تنتهي .. يعلم أنها ضنت بهذا الحال .. لكن ماذا ستفعل؟ أين ستذهب هي وأولادها الثلاثة؟ معاش أبيها بالكاد يكفيه هو وأمها وأخيها طالب الجامعة .. أخواتها مشاركون في هذا الفقر .. لماذا يكتب على الفقير أن يحاط بدائرة من الفقراء من حوله .. أيصدق المثل " الطيور على أشكالها تقع " أما من استثناء لذلك .. كيف وأسرته أيضا تقع في نفس الدائرة .. تطبيق عملي لذلك المثل .. بينما هو يفكر في حيلة يخدع بها ما تبقى معه من راتبه ليكمل يومه الثلاثون .. انتبه إلى إعلان على شاشة التلفاز التي كان يجلس أمامها وهو يحتسي كوب الشاي .. فتاة حسناء .. تتحدث عن صورتين متطابقتين تظهران بجوارها..

تحث المشاهدين في حديثها بصوت بدا له مزعجا على ضرورة الاتصال .. الاتصال حالا وفورا دونما تأجيل .. تحثهم على اكتشاف الاختلافات الثلاث بين صورتين لممثلة مشهورة .. من يعرف الحل الصحيح سيحصل على ثلاثة آلاف دولار .. " ثلاثة آلاف دولار " .. ردد الرقم .. في مقارنة سريعة هو بالكاد يتحصل على ثلاثة آلاف جنيه من ثلاثة وظائف مختلفة على مدار اليوم .. أصبحت قيمتها تساوي اليوم ثلاثمائة جنيه .. ثم انتبه وهو يحدق في الصورتين إلى الاختلافات الثلاثة مع صوت أحد المتصلين وهو يخطئ في الإجابة والمذيعة تتمنى له حظا أوفر في المرة القادمة .. إن الاختلافات واضحة جدا .. واحدا عند صدرها .. الآخر عند ساقها اليمنى العارية .. والأخير في الحذاء الذي ترتديه .. بحث عن الرقم .. لماذا لا يتصل؟ هو لم يجرب حظه من قبل .. فليجرب الآن .. إن لم يكن هذا وقت الحظ .. فمتى يكون .. التقط هاتفه .. طلب الرقم في سرعة .. أتاه صوت المذيعة .. أخبرها بالاختلافات الثلاثة .. منحته ثلاث دقائق من المديح والإطراء والتهنئة بالفوز .. هلل وجهه فرحا .. أوصلته إلى شخص آخر حدد له الموعد والمكان لاستلام المبلغ .. أغلق الهاتف ووضعه جانبا .. التقط ورقة وقلما .. دون حرف الميم .. تحته رقم واحد بجواره ثلاثة آلاف دولار .. مضروبا في سبعة عشر .. في خانة أخرى سجل الناتج .. التقط ريموت " الريسيفر " ..

بحث في القنوات عن مسابقة أخرى .. سيجرب حظه ثانية .. التقط هاتفه مرة أخرى .. اتصل .. انتصر الحظ ثانية .. لكنها .. كانت خمسة آلاف جنيه .. لا تهم العملة ما يهم هو الفوز والمبلغ .. دون هذا أيضا كالمرة السابقة .. بحث مرة أخرى .. مسابقة تلو الأخرى .. مكسبا يليه مكسب .. يبحث ويفوز ويدون .. ثم أشار على نفسه .. أن الاتصال القادم هو آخر اتصال سيقوم به .. ثم قام بتسجيل الساعة .. فلابد أنها ساعة حظه .. لماذا لم يجرب حظه في الماضي؟ بنظرة سريعة إلى مجموع المبلغ الذي فاز به ، تقريبا ثلاثون ألف جنيه شاملة ناتج الدولارات .. مبلغ كبير .. بحسبة بسيطة .. لو أراد أن يتحصل على هذا المبلغ سيكون في أحلامه فقط .. التقط الهاتف ليقوم بآخر اتصال كما اتفق بينه وبين نفسه .. بحث في القنوات .. حتى وجد ضالته .. طلب الرقم .. جاءه صوت أنثوي ، لكن هذه المرة كان من هاتفه تخبره بأن رصيده قد نفذ .. عليه أن يشحن الرصيد .. قام بمناداة ابنه الأكبر .. طالب السنة الأخيرة في المرحلة الإعدادية ، جاءه الابن .. أخرج من جيبه مائة وخمسون جنيها .. آخر ما يملك .. لا يهم .. معه الآن مبلغا كبيرا .. أعطى ابنه خمسون جنيها .. أخبره بأن يشتري له بطاقة لشحن الرصيد .. ذهب الابن وعاد إليه ببطاقة الشحن ، دون أرقامها في سرعة على هاتفه .. وصلته الرسالة بأن عملية الشحن تمت وأن

رصيده أصبح ثلاثون جنيها .. عاود البحث عن مسابقة أخرى .. وجد واحدة .. لكنها مسابقة دولية والدقيقة بثلاثة جنيهات .. لكن الجائزة مليون دولار .. سيفوز بها لا محالة ، إنها ساعة حظه سيشتري منزلا جديدا .. سيارة جديدة .. سيرتاح من وظائفه ويتفرغ للمسابقات وحصد الجوائزوالملايين .. اتصل في سرعة .. من سؤال إلى سؤال .. لسؤال آخر .. إلى غيره وغيره .. حتى فاجئه الصوت الأنثوي مرة أخرى معلنا انتهاء الرصيد ثانية .. ماذا يفعل لقد وصل إلى السؤال قبل الأخير؟ تبقى معه مائة جنيه فقط .. وموعد استلام أول مبلغ بعد ثلاثة أيام ..

انتبه فجأة إلى صوت ابنه يخبره بأنه يريد خمسون جنيها لدرس الغد .. لم يجد بديلا سوى أن يشير إلى المائة جنيه المتبقية أمامه ليأخذ منها ما يريد وأن يعيد الباقي .. هز الابن كتفيه بأنه لا يرى أي شيء أمامه .. بحث عنها على المائدة وهو يخبره بأنه وضعها هنا بعد أن أعطاه خمسون جنيها منذ دقائق .. قاطعه الابن بأنه لم يأخذ شيئا ، وأنه لم يأت إليه سوى الآن .. في سرعة وضع يده في جيبه .. فوجد المائة والخمسون جنيها كما هي .. نظر إلى الورقة التي أمامه فوجد عليها أرقاما مكتوبة في عشوائية فوضوية لا تنم عن شيء .. رفع بصره إلى التلفاز .. وجد إعلانا خبريا عن سفينة غارقة في المحيط تحوي كيلوجرامات كبيرة من الذهب الخالص ..

هناك محاولات بائسة لانتشالها نظرا لصعوبة الوصول إليها .. ابتسم وأعطى ابنه الخمسون جنيها .. وهو يقول في قرارة نفسه .. ليست لي حظوظ مع الذهب ..

جُند الملك

(١)

حين وصل إلى المنزل الخشبي الذي يقف وحيدا في منطقة نائية .. طرق الباب بعد أن ترجل من فوق فرسه .. فتحت له شابة جميلة تطل من وجهها ابتسامة عذبة بشعرها الذهبي المسترسل فوق كتفيها .. احتضنته وقبل وجنتيها ثم دلف إلى الداخل .. أعطته رضيعها فأخذ يداعبه قليلا بعد ان اتخذ مجلسه على كرسي خشبي مهترئ، أمام مائدة صغيرة ووضع الطفل على ساقيه بينما ذهبت تعد له بعض الطعام .. تيقنت أنه جاءها هاربا كعادته من جنود الملك، قامت بلومه على وصوله إلى هذه الحال حين أطلق العنان للسانه فنطق بقصيدة ذم بها الملك فأمر بالقبض عليه حيا .. تذكر كيف كان ذلك الشرط عونا كبيرا في الهروب .. ثم أطرق برأسه مجيبا .. بأنه فر منهم لتوه ثم أتى إليها سريعا .. يدرك أن مصيره الموت إن وقع بين يدي الملك ولن يراها إلى الأبد .. لذا فهو يختلس الفرصة حين يتوقفون عن مطاردته أو عندما يتوارى عنهم للمجيء إليها والاطمئنان عليها وعلى رضيعها .. كان حمله ضد رغبة الزوج على زعم من ضيق الحال وعدم قدرته على توفير

الطعام لهما فكيف بثالث فبات يترك البيت هائما على وجهه في الحانات .. ذات مرة حين حاول الوصول إليه لإقناعه بالعودة إلى زوجته الجميلة وطفله لرعايتهما .. رآه مفترشا الأرض يمد يده ليتجرع قطرات من رشفات الخمر المتبقية في أكواب الزبائن بعد أن فرغوا منها .. يعود في المساء ليلقي بجسده المتهالك على أرض البيت حتى يوقظه ضوء النهار ولسعة أشعة الشمس .. ثم يعاود الكَرة يوما تلو الآخر .. فلم يجد أملا في محاولته تلك .. أرادت ان تستوضح منه الى متى سيظل على هذه الحال .. فالنهاية هي وقوعه حتما في أيدي الملك وجنوده .. فلن يثنيهم شيء عن الإمساك به .. أخبرها أن فكرة الهروب من المملكة إلى أخرى تراوده كثيرا إلا أن خوفه عليهما يقف حائلا بين ذلك .. فليس من مفر أمامه سوى بقاء الحال على ما هو عليه حتى يموت الملك أو يسأم الجنود في مطاردته .. حثته على تنفيذ خطته فخيرٌ لها أن تفصل بينهما المسافات على أن تفصل رأسه عن جسده أو أن تتدلى من على أحد المشانق .. فهي لن تتحمل مطلقا أن يحدث هذا لأخيها الوحيد .. اقتربت منه تضمه في أحضانها لتنفض عن رأسها هذه الرؤى المشئومة التي راودتها وقد انهمرت الدموع من عينيها وتساقطت على وجه رضيعها الذي بدا أن جفونه تتحرك حيث أوشك على الاستيقاظ من غفوته البسيطة .. وضعته على المائدة بقربها ..

ربتت عليه عَله يعود إلى نومه ثم عاودت النظر إلى أخيها وهمت بقول شيء ما ، إلا أن قطع ذلك صوت الباب وهو يُفتح إثر ركلة قوية من احد الجنود بقدمه تبعه احتشاد البقية وانتشارهم في سرعة داخل البيت وقد انكبوا على الشاب لتقييد حركته فاحكموا سيطرتهم عليه وسط صراخ الأخت وطفلها الرضيع الذي فزع وبدأ بكائه وصراخه يملآن أجواء البيت .. ذُهل الشاب من تتبعهم له وصولا لبيت أخته التي أسرعت تحتضنه ثانية بعد أن فرق بينهما الجند ، دفعها الجندي بيده فأفلت الشاب منه وهوى بقبضته بلكمة قوية على وجهه ، إلا أن جنديا آخر ركله في قوة بين ساقيه فهوى الشاب على ركبتيه متأوها ، وجثت على ركبتيها تقترب منه فأحتضنها في قوة هامسا لها بأن تبيع حصانه ليعينها في معيشتها .. دفعها أحد الجنود بعيدا ، أحكموا وثاقه جيدا وألقوا به خارج البيت ثم ربطوه بأحد خيولهم وجروه وسطهم مهرولا على قدميه ، تهلل وجهه حين لم ينتبه الجنود إلى حصانه ، أشار إليها يذكرها بما أوصاها به وهي تنظر إليه بعين باكية تساقطت منها الدموع تروي الأرض من تحتها وهي جاثية عليها حتى توارى عن أنظارها ..

(٢)

انطلق الجند بالشاب إلى قصر الملك ، وكلما مر بجمع من الناس قذفوا وجهه بما في أيديهم ونعتته ألسنتهم بأقذع عبارات السباب والألفاظ واتهامه بالخيانة والشعوذة والتآمر على حياة مليكهم .. يقابل كل ذلك بوجه لا يخلو من ابتسامة يشوبها الحزن وبعض الشفقة على ما آل إليه حالهم من فقر.. تعجب بمن نادى منهم بالمطالبة بقطع رقبته أو حرقه حيا لمجرد قصيدة هجا بها الملك مهاجما أفعاله المشينة بهم .. مجرد كلمات لا يملك غيرها ألقاها وسط العامة الذين تفرقوا من حوله بعدما فرغ من كلماته خوفا من بطش الملك .. يرون النهاية في مصيره الذي آل إليه الآن .. مُحكم الوثاق وسط الجند يحيطونه بخيولهم يسيرون بها في تؤدة وخُيلاء بعد أن وقع في أيديهم صيدا ثمينا ، تراودهم الغنيمة التي سينالونها مكافأة من الملك .. وصلوا إلى أبواب القصر فبادر حراسه برفع الرتاج الخشبي .. فُتح الباب على مصراعيه وواصل الجُند سيرهم حتى وصلوا إلى مشارف البهو الملكي وترجلوا من على ظهور خيولهم .. دلف القائد إلى الملك وهو يسوق الشاب خلفه بحبل موثوقة به يديه .. انحنى نصف انحناءة لتحية الملك .. ثم ألقى بالشاب أمامه .. فقام الملك على الفور من فوق كرسي عرشه المزدان بالحلي والمرصع بالجواهر والمطلي بالذهب الخالص يعكس

ذلك بريقا يشع منه وهو يجر عباءته الملكية في كبر وخيلاء .. ألقى نظرة سريعة على الشاب الذي كان جاثيا على ركبتيه .. عرض القائد على الملك بأن يأمر بقطع لسانه على الفور وإلقائه وسط العامة ليقضوا عليه خاصة بعد أن قص عليه ما لاقاه على أيديهم طوال رحلة اقتياده إلى هنا .. أشار الملك بيده علامة النفي .. عاد إلى جلوسه على عرشه مستغرقا في فكرة تجعل منه أداة لإلهاء الشعب مدة طويلة يتحاكون عنها وتنسيهم تلك الهزيمة التي مُني بها جيشهم ، حين فقد ثلث جنوده ما بين قتيل ومصاب في غزوته الأخيرة لإحدى الممالك .. بعد أن وعدهم بأن الاستيلاء عليها يُعد مَنفذا لرفع مستوى معيشتهم البائسة بعد أن بدأت تنضب مواردهم القليلة وآلت إلى تلك السنين البائسة وشقاء من الحال طال أمده كثيرا .. أمر بأن يُلقي في السجن وأن يكون عقابه الموت جوعا وقبل موته سيجف حلقه ولسانه الذي هجا به الشعب ووصفهم بالاستكانة والضعف ، وهو بذلك أي الملك يثأر لشعبه من شاب صفيق اللسان قاده غروره إلى سب العامة والتقليل من كفاحهم مع الملك من أجل حياة أفضل منتقصا من صبرهم وتحملهم أعباء الحياة من أجل وحدة مملكتهم .. امتدح القائد عبقرية الملك وكيف أنها ليست بالجديد والغريب على حكمته في تصريف أمور الشعب .. وعده الملك بمكافأة مجزية له ولجنوده

نظير نجاحهم في مهمتهم على أكمل وجه .. شدد عليه بأن تُذاع فكرة عقاب الشاب في أرجاء المملكة ليعرف الناس أن مليكهم لا يغمض له جفن ولا يتوقف تفكيره للحظة من أجلهم ، وأن يكون في الوقت نفسه عبرة للمتآمرين عليهم حتى لا يحذو حذوه كائنا من كان ..

(٣)

جففت الأخت دموعها بعد أن أنهت إرضاع وليدها، فما إن التقم ثديها حتى هدأت نفسه وتوقف عن البكاء، بات على وشك الدخول في نوبة من النوم بعد نوبة صراخ أنهكت قواه الضعيفة.. تذكرت كلمات أخيها فقامت من مكانها تحمل صغيرها .. خرجت من المنزل ثم امسكت لجام الحصان ووضعت رضيعها على سرجه متجهة إلى السوق .. ما إن وصلت حتى أقبلت على أحد التجار وعرضته عليه .. أبدى التاجر إعجابه بقوة الحصان ولونه الأسود .. لم يخف إعجابه بصاحبته في محاولته إمساك يدها حين ناولته لجام الحصان .. عرض عليها ثلاثمائة قطعة فضية من النقود ثمنا له .. رفضت فزادها الرجل مائة أخرى ولن يزيد .. وافقت فأخرج كيسا من النقود وعاود مسك يدها وهو يناولها إياه ، إلا أن الحصان صهل في قوة أفزعته فجذبت كيس النقود ..

التقطت رضيعها عائدة إلى منزلها قبل أن يسدل الليل أستاره ويعود زوجها المخمور فيأخذ ما معها من نقود .. دخلت البيت ووضعت رضيعها فوق المائدة ثم أزالت لوحا خشبيا بجوارها فظهرت لها الأرض من تحته فحفرت حفرة لا بأس بعمقها ، أخرجت بعض القطع القليلة ثم ألقت بالكيس داخل الحفرة وردمتها سريعا وأعادت اللوح مكانه ..

(٤)

دفعه الحارس بيده داخل الزنزانة وقد أحكم قيده خلف ظهره ، ثم أغلق بابها في إحكام فور ولوجه إليها .. ما إن وطأت قدميه أرضها حتى باغتت أنفه رائحة نتنة ، لم يستطع أن يميز ملامح الزنزانة أو حجمها لشدة ظُلمتها إلا من تلك البقعة الصغيرة عند الباب ، بدا عليها انعكاس ضوء ذلك السراج المعلق على الحائط المواجه لبابها .. فآثر الجلوس مُسندا ظهره على بابها ليصل إليه شعاع الضوء الخافت .. حاول التغلب على تلك الرائحة بأن أطلق العنان لعقله في التفكير في أخته ورضيعها .. تمنى أن تكون قد عملت بنصيحته ..

(٥)

انتشر في أرجاء المملكة نبأ عقاب الملك للشاب بإلقائه في غياهب السجن ليلقى حتفه جوعا وعطشا .. لقي العقاب استحسانا بين الناس .. حيث شرح لهم جواسيس الملك أنه استردادا لكرامتهم وثأرا لهم من هجاء الشاب وسخريته منهم .. كانت أخته وقتها تتبضع بعض الطعام من السوق وعلى يديها رضيعها .. وصلت إلى مسامعها أحاديث الناس حول عقاب أخيها فحملت ما اشترته وأسرعت إلى منزلها .. في الطريق قفزت إلى رأسها صورة لأخيها ملقى على أرضية السجن يتضور جوعا ويتلوى من أجل قطرة ماء .. ما إن دلفت إلى المنزل حتى سارعت بوضع رضيعها أرضا ، وقامت برص بعض الخبزوقطع من الفاكهة وقنينة من الماء داخل خرقة من القماش وصنعت منها حزاما ، رفعت ثوبها ولفته حول خصرها .. أنزلت ثوبها وتأكدت من عدم بروزالطعام ، حملت رضيعها وبعض المال الذي سيفتح لها الأبواب المغلقة .. انطلقت نحو القصر الملكي خاصة الجزء الخلفي حيث تواجد زنزانته .. وصلت إلى البوابة الجانبية فوجدت عليها حارسا دفعت إليه ببعض النقود وأخبرته بمرادها .. التقط النقود وهو يخبرها بأنه سيسمح لها بالمرورمن هذا الباب.. لكن عبء الطريق حتى محبسه سيقع على كاهلها .. تفحص جسدها بعينيه مضيفا أن بإمكانها

الوصول في يسر وسهولة إن استعملت حيل النساء .. تصنعت ابتسامة باهتة، دفع الباب بيده مشيرا إليها بالدخول ثم أغلقه خلفها .. سارت في ممر طويل مظلم بعض الشيء تضم رضيعها إلى صدرها في قوة .. اجتازت الممر حتى وصلت إلى باب آخر وجدت عليه حارسا نحيل الجسد ، كررت معه ما فعلته بزميله وفتح لها الباب سريعا دون أن ينبس بنبت شفة .. عبرت في سرعة .. وجدت أمامها الزنزانة يفصل بينهما ردهة واسعة وممر صغير وحارسين لا أكثر .. توجه إليها أحدهما وكان ضخم الجثة .. نظر إليها نظرة ذات مغزى وهو يسألها عن قرابتها للسجين .. فأخبرته .. أمرها بأن تضع رضيعها أرضا لتفتيشها .. ساورها القلق من أن يُكشف أمرها لكنها لم تملك سوى أن تمتثل لأمره .. اقترب منها أكثر ودار حولها ثم التصق بها من الخلف ووضع يديه على صدرها وضغط عليهما في قوة ثم نزلت يديه إلى أسفل صدرها بعض الشيء .. اكتفى بذلك .. تبدد قلقها حين تقدمها ليفتح باب الزنزانة .. دلفت إليها بعد أن انحنت تلتقط رضيعها .. أغلق الباب خلفها ..

احتضنته بقوة .. لم يستطع معانقتها كما كان يفعل دوما .. اتجهت نحو الركن المظلم رفعت ثوبها وجذبته بعيدا عن البقعة المضيئة .. روت ظمأه بقطرات قليلة من الماء ثم جلست تطعمه ..

خبأت ما تبقى في الركن المظلم .. رفعت رضيعها عند وجهه فقبل رأسه الصغير..

(٦)

اسند ظهره عند الباب كعادته منذ أن ألقي هنا ، هذه المرة ترك دموعه تنسال على خديه، طوال عشرون عاما هي عُمره نشأ في رعايتها وكنفها ، تولت كافة أموره منذ موت أمهما ، أصبحت بمثابة الأم والأخت وكل ما يملك من الدنيا ، أطلق العنان لجلد ذاته ولومها على كلمات ألقت به في السجن بدلا من أن يرعى أخته ورضيعها بعد أن خذلهما الزوج والأب .. فيم كان يطمح وهو يلقي بكلماته .. أن يتحرك الناس ليثوروا ويرفعوا عن كاهلهم قبح الملك وظلمه .. أن يثور الناس ضد الملك مطالبين بحقهم في الحياة "ها هم قد ثاروا ضدي أنا ، بدلا من أن يثأروا لأحلامهم التي نزعها الطاغية نزعا وزرع بدلا منها كابوسا لا يفارقهم ليل نهار" ..

(٧)

بعد مرور شهر على سجن الشاب .. استدعى الملك قائد الجند .. سأل عن أخبار السجين .. على العامة أن يروه وقد جف حلقه وبرزت عظامه قبل أن يلقى حتفه تماما .. حيث أن صورته على تلك الحال من شأنها أن تظل عالقة بأذهانهم لأمد طويل .. انصرف القائد على الفور بعد أن وعد مولاه بإشرافه على ذلك بنفسه ..

(٨)

عادت ذات مرة إلى بيتها بعد زيارته .. وجدت الباب مفتوحا .. هوى قلبها بين أضلعه وتسارعت دقاته حين وجدت اللوح الخشبي منزوعا من مكانه محطما .. في اقترابها أبصرت زوجها جالسا أمام المائدة وقد تبعثرت عليها قطع النقود .. انتفض جسدها في عنف ، رأت في ذلك هلاك أخيها فلن تجد ما تشتري به طعاما ولن تجد ما تشتري به ذمم الحراس .. تلاقي وجهيهما منذ شهور فوجدته مبتسما في سخرية يخبرها بأنه لن يسأل من أين لها بهذا المال ، سيغض الطرف عن ذلك رغم لومه لها على عدم حفظ نصيبه .. إلا أنه سيكون أكثر عدلا معها ويقتسم المال بينهما مناصفة .. ثم أخذ مائة قطعة هي نصف ما تبقى وانصرف إلى حال سبيله .. وضعت طفلها على المائدة ولملمت ما تبقى من نقود وأخذت تحفر

حفرة أخرى خارج البيت .. وضعت فيها ما تبقى ثم ردمتها بقوة .. دلفت إلى البيت وأغلقت الباب بقوة ممنية النفس بعدم عودته ثانية ..

(٩)

وصل القائد إلى الزنزانة .. وجد حارسيها يغطان في نوم عميق .. ركل بقدمه الأول ثم أوقظ الثاني بلطمة قوية على وجهه نهض على إثرها مفزوعا ، انتبه الضخم إلى سيده الواقف أمامه يأمره بفتح الزنزانة ليرى السجين .. على عكس ما توقع فقد وجده بكامل قوته وحيويته كأنه سجن منذ لحظات .. ذُعر من وجوده على هذه الهيئة وخرج على الفور .. أمسك الحارس الضخم من رقبته ، سأله بوصفه المسئول الأول والأخير أمامه عن كيفية بقاء السجين على هذه الحال بعد مرور شهر دون طعام أو شراب .. أجاب بأنه لا يدري .. أقسم بحياته بأنه لم يُدخل إليه شيئا ولم يسمح لأحد بالدخول عليه سوى أخته التي تزوره مرة أو مرتين كل أسبوع .. انتبه القائد إلى العبارة الأخيرة .. سأله إن كان يقوم بتفتيشها جيدا .. أومأ الحارس برأسه " نعم " .. مضيفا أنه يفتشها بنفسه ولا يجد معها شيئا .. انصرف القائد بعد أن أوصاه بإضاءة الزنزانة ومراقبة السجين .. وأن يحرص على تفتيش المرأة جيدا كحرصه على بقاء

رأسه فوق كتفيه .. فإن علم الملك بأن السجين لا زال على حاله فسوف تطير تلك الرأس .. بلع الحارس ريقه في خوف إثر العبارة الأخيرة .. ثم قام بالصراخ في وجه زميله لينفذ كلام القائد .. على الفور بدأ الحارس بوضع سراجا داخل الزنزانة ، اندهش الشاب من ذلك خاصة بعد أن خرج مسرعا لعدم احتماله الرائحة ، سأله الضخم "هل بها بقايا من طعام أو ما شابه" فأجاب بالنفي ثم أمره بأن يحرص على تفتيشها يوميا على أن يترك أمر تفتيش المرأة له شخصيا ..

(١٠)

انطلق الزوج إلى السوق فابتاع له ثوبا جديدا .. خلع ثوبه القديم .. بدا عاريا تماما وسط دهشة الجميع .. أشاحت النساء بوجهها حين فوجئوا بفعلته .. بينما سخر منه بعض الرجال حتى تهكم أحدهم عليه بقوله "أن الثوب الجديد لا يليق بجسد عفن" .. لم يعبأ بهم ولن يعبأ مطلقا .. انطلق إلى الحانة يمني نفسه بالجلوس على كرسي أمام مائدة مرصوص عليها كؤوسا من الخمر ملآنة عن بكرة أبيها .. لن يفترش الأرض مطلقا بعد الآن فقد وقعت يده على كنز لن ينضب معينه لسنوات كثيرة قادمة حتى يبدأ شبابها بالزوال ..

(١١)

ما إن وصلت إلى الحارس الضخم حتى وضعت رضيعها على الأرض منتظرة قيامه بتفتيشها بطريقته التي اعتادت عليها .. إلا أنه لم يحرك ساكنا بل ابتسم في سخرية أثارت دهشتها وقلقها .. ارتجف جسدها بغتة حين أمرها بخلع ثوبها .. فزعت لما جال بخاطرها مما سيلاقيه أخوها من جوع وعطش حين يأخذ هذا الحارس ما أخفته من طعام حول خصرها ويلتهمه انتقاما لخداعها له طوال هذه المدة .. سأم الحارس من عدم امتثالها لأمره فأعاد عليها عبارته بصوت أغلظ من سابقه .. في بطء بدأت تزيح ثوبها من على كتفيها وما إن تحرر حتى سقط بأكمله عند قدميها .. أزعجه ذلك الحزام الذي رآه عند خصرها .. وكز زميله في كتفه أن يحضره له .. حين عاد به إليه قام بفكه واستشاط غضبا حين وجد ما به من طعام .. فنهض من جلسته على الفور ملقيا ما به على الأرض ثم قام بهرسه تحت أقدامه .. انحنى يفتش طفلها .. أقسمت له بأن ما وجده هو كل ما لديها ليترك طفلها الضعيف .. استدار إليها في غيظ .. أعقبها بلطمة قوية على وجهها ارتدت لها في عنف وسقطت على إثرها أرضا وهو ينعتها بالعاهرة اللئيم ، ثم ألقى عليها ثوبها فقامت بارتدائه .. دفعها ناحية الزنزانة .. انحنت تلتقط طفلها فحال بينهما بجسده الضخم أخبرها ببقائه هنا حتى

تفرغ من زيارة أخيها .. دخلت والدموع تنسال على خديها .. استفسر أخوها عن سببها فقصت عليه ما حدث من سقوط الطعام وانكشاف أمرها .. أخبرها بأن ما زال لديه بعض الطعام من المرة السابقة .. أطعمته وهي ترقب بعينيها في خوف ووجل تلك الفتحة الموجودة بالباب خشية أن يراهما أحدهما .. قبل أن تنصرف أمرها بألا تأتي إليه ثانية فلتتركه يواجه مصيره خوفا من أن يصيبها مكروه أو أن يحكم عليها بنفس المصير.. فلم يعد لها من حيل أخرى لتحضر ما يقتات عليه ..

(١٢)

كان الزوج يجلس في الحانة أمام مائدة تراصت عليها كؤوس الخمر يداعبها ويلاعبها وكلما فرغ من كأس ألقى بداخلة قطعة من النقود .. خلت جيوبه وفرغ تماما من تجرع كؤوس الخمر التي تلاعبت برأسه .. عزم على العودة إلى البيت لإحضار المزيد من المال .. إلا أن أثر الخمر كان قويا عليه فدارت رأسه في قوة وسقط وجهه على المائدة وغطَّ في نوم عميق..

(١٣)

كانت تُرضع صغيرها وقد أحمرت عيناها من شدة البكاء .. جال بعقلها تصور لما سيلاقيه أخيها في قادم الأيام دون طعام أو شراب .. لم يهتد عقلها إلى حيلة أخرى تنقذه من ألم الجوع وذُل السجن .. وضعت رضيعها بجوارها بعدما فرغت من إرضاعه .. مسحت دموعها بيديها .. لكن صغيرها ما لبث أن تحرك بضعة حركات بجسمه الضعيف تنبئ عن عدم اكتفائه بتلك الجرعة، بدأت ترتسم على وجهه علامات البكاء والصراخ .. فوضعته على فخذها ثانية وألقمته ثديها من جديد .. عاد إلى هدوئه واستكانته وهو يحرك شفتيه الصغيرتين يمتص ثديها ليشبع جوعه .. تذكرت كيف كانت تمد يدها للناس وهي ابنة عشر سنوات تمسك بيد أخيها الصغير تستعطفهم كي يلقوا إليها بالقليل من النقود تشتري به طعاما يسد جوعه .. هي له بمثابة الأم أكثر من كونها أخته الكُبرى .. هدأ طفلها الرضيع بعدما شبع .. وأنى لطفلها الكبير أن يسد جوعه وأنى له أن يروي ظمأه .. أحاطت به جدران السجن .. بينما يقف حراس الملك خارجها وقد سلط سيفه على رقابهم حتى بات انتظار موته مساويا لإطالة أمد حياتهم .. إلا أنها انطلقت مسرعة وهي تحمل رضيعها عازمة أمرها على زيارته .. الحراس لا يُمانعون زيارتها في أي وقت تشاء واعتبروها تسلية لأوقاتهم التي تمر

في ملل شديد .. ما إن وصلت إلى الحارس الضخم حتى وضعت رضيعها كعادتها وبدأت بخلع ثوبها .. أشار إليها في لامبالاة أن تعيد ارتدائه وتقدمها ليفتح لها الباب ثم أغلقه خلفها .. دلفت إلى أخيها .. وجدته أقرب للموت منه إلى الحياة ممدا بلا حراك .. لم يعد يشعر بها .. مرت عليه أياما دون طعام أسرعت نحوه حاولت أن تشعره بوجودها .. ما من سبيل إلى الحياة .. لم تتخذ وقتا في التفكير اقتربت من فمه ثم أخرجت ثديها واعتصرته .. عازمة على إبقائه حيا مهما كلفها الأمر.. أحس ببعض قطرات من الماء تنسال على شفتيه .. تتسرب إلى داخل حلقه .. بينما هم كذلك إذ اقترب الحارس من باب الزنزانة في بطء يراقبهما كما أمر قائده .. ما إن وقع بصره عليها حتى فغر فاه في دهشة ثم أشار إلى زميله الضخم بالاقتراب في هدوء ، أخلى له المساحة ليرى ما أبصره ..

حين أحست بحركته محاولا النهوض .. عادت إلى ما كانت عليه .. ابتسم لها في خفوت .. بكلمات تكاد تشق لها طريقا إلى مسامعها .. أخبرها بحلم أحس فيه بارتوائه بعض الماء .. لم تعر ذلك اهتماما .. قصت عليه اتفاقا عقدته مع الحراس لتسهيل هروبه من السجن مقابل بعض المال تستطيع تدبيره .. بعد أن اطمأنت عليه طرقت الباب ففتح لها الحارس وعلى وجهه نظرة أثارت قلقها إلا أنها لم تبال بذلك .. ثم أمر الحارس الضخم زميله

بأن يذهب ليأتي له بالطعام .. انطلق ملبيا الأمر .. بينما انحنت تلتقط صغيرها إلا أنه حال بينها وبين ذلك .. اقترب منها .. مد يده إليها يتحسس جسدها .. حاولت أن تبتعد عنه وتلتقط رضيعها .. أمسك معصمها في قوة .. جذبها من خصرها إليه .. أنفاسه الكريهة تقترب من وجهها .. تحاول جاهدة أن تبعده بيديها .. لكن قوته المفرطة وضخامة جسده ذهبت بمحاولاتها أدراج الرياح .. في سعيه إلى جسدها .. قص عليها ما رآه .. فهمت ما يرمي إليه .. طأطأت رأسها تفكر في التخلص منه .. جذبها من يدها .. بدت عاجزة .. إن راودته فلن تكون الأخيرة .. وإن صدته ففي ذلك هلاك أخيها .. لم يمهلها الرجل فرصة لتقرر مصيرها ، حين جذبها نحو ركن مظلم بعض الشيء .. ألقى بها في عنف .. قبل أن تتحرك ألقى بجسده فوقها ، ثم رفع ثوبها ممهدا الطريق لشهوته .. أشاحت بوجهها بعيدا عن أنفاسه وأغمضت عينيها في قوة .. اعتصر هو جسدها .. إلا أنها ما لبثت أن أرخت عينيها حين لم تشعر به .. ما هي إلا لحظات حتى دفن وجهه عند رقبتها .. ثم أزاح جسده من عليها قامت تنهض في سرعة وقد أرخت ثوبها .. التقطت رضيعها وانصرفت مسرعة إلى بيتها ..

(١٤)

وصل الحارس الآخر إلى القائد واستأذن في الدخول إليه .. قص عليه ما رآه من السجين وأخته .. وشى بزميله الضخم مفسرا للقائد أن تكتمه للأمر وتستره على المرأة ليخلو بها كيفما يشاء ، يأمره بالذهاب كلما أتت لزيارة أخيها .. استشاط القائد غضبا .. عنفه لأنه لم يخبره منذ بداية الأمر.. أقسم له أنه لم يعرف سوى في زيارتها الأخيرة .. أمره القائد بأن ينصرف ، واعدا إياه بمكافأة مجزية وأن يتكتم أمر مجيئه .. ثم استدعى جنديا آخر ، أمره بأن يرابط عند السجن ، حين يلمح قدوم تلك المرأة يرسل له من يخبره..

(١٥)

وجدته على حالته السابقة .. تلك القطرات تبقيه حيا .. ريثما تدبر أمر حريته عما قريب ثم انتفض جسدها في عنف حين فُتح باب الزنزانة في قوة ووجدت أمامها القائد برفقة جنوده .. أخفت ثديها .. رجت ضحكات القائد المكان وهو يقول مندهشا .. "ماذا تخفين يا امرأة .. لقد افتضح سركما " .. ثم توجه إلى أخيها الذي يحاول جاهدا استعادة وعيه .. حاول أن يفهم حديث القائد إلا أنه لم يمهله ذلك بركله في وجهه .. ثم أمر جنديا بتقييد يديها خلف ظهرها .. لبى الجندي الأمر وهو يدفعها إلى ركن بعيد .. ثم استدعى

القائد ذلك الحارس الضخم ولا زالت فرائصه ترتعد منذ أن وجد القائد أمامه .. امتثل لأمره في سرعة .. فأمر جنديا أخر بتقييده ثم جذبه القائد من ردائه العسكري ملقيا به في نهاية الزنزانة بعد أن نعته بالخيانة وتلويث شرفه العسكري مقابل لحظات من المتعة .. بدأ الطفل الرضيع القابع خارج الزنزانة في البكاء والصراخ .. بدورها بدأت تصرخ في الجنود تطالبهم بأن يرحموا صغيرها فلا ذنب له .. لم يتحرك أيا منهم .. فبدأت بالزحف نحوه حتى اقتربت من أحد الجنود فركلها بعيدا عنه .. لم تتوقف عن البكاء والصراخ وكذلك صغيرها .. إلا أن جنديا بدت على وجهه علامات الانزعاج لصوت الصغير فتحرك نحوه .. أحست بأن في قلبه بعضا من الرحمة وسيأتي إليها بصغيرها ، انحنى نحوه واضعا يده على وجهه .. لحظات حتى هدأ الصغيرواستكانت نفسه .. تعجبت من صغيرها .. استكانت هي الأخرى وألقت بوجهها على الأرض ، تنظر إلى أخيها وتيقنت من أنه فقد وعيه تماما .. بينما تطلع الحارس الضخم إلى سيوف الجند ودار بمخيلته رؤيتها وهي تشق الهواء ثم تهوي على عنقه لتفصل رأسه عن جسده ..

(١٦)

ظل الناس يتحاكون لأمد طويل عن ذلك الزوج الذي أهمل زوجته .. فاتجهت إلى إطفاء نار شهوتها مع أخيها السجين المحكوم عليه بالموت جوعا .. كيف كانت في لحظات موتها تحتضن رضيعها بعد أن توقف قلبه الصغير من كثرة البكاء والصراخ ، من أجل أن تطعمه .. وهي لاهية عنه .. غارقة في رذيلتها تحت سمع وبصر الحارس الذي تستر عليهما لقاء القليل من المال .. كيف تجلت حكمة الملك في القضاء على فسادهم .. حيث أظهر رحمته بهم حين قام بتطهيرهم من خطاياهم بأن أمر بحرقهم أحياء ..

لعنة الملوك

(١)

تمايلت حركة يديها وتناغمت حركات جسدها مع الورود وأغصانها التي ملأت المكان من حولها، حين تراقصت بها الريح في نعومة وهي تستدير دورة كاملة في سعادة بالغة، تنظر للأطفال من حولها يمرحون وعلى شفاههم ابتساماتهم الساحرة ويضحكون في جذل وهي تتوسطهم بردائها الأبيض الفضفاض، تنسال جدائل شعرها الأشقر على جانبي وجهها المشرق كشمس أخرى تنافس تلك التي تملأ الأرض من حولها دفئا وأنوارا، غير أضواء عينيها الزرقاوين اللتان تشعان بريقا أخاذا يسحر العقول والقلوب.. إلا أن الريح الهادئة اشتد هوائها وتمايلت أغصان الورود من حولها في غلظة وتحولت زرقة السماء إلى اللون الأسود القاتم يشقها برقا مفزعا يزيد الأمر سوءا بفروعه وتجزع القلوب لرؤياه ، ارتعدت السماء من فوقها واهتزت الأرض وارتجفت من تحتها ، تغير لون عينيها واختفت زرقته ومال لونه إلى الرمادي ليشيع رعبا وفزعا في قلب من يراه ، عبست وجوه الأطفال من حولها وملأتها التجاعيد وكبرت أجسادهم وازدادت طولا ، تدير عينيها فترى أجسادهم

تتحول إلى حجارة تتساقط فتنكسر مخلفة رؤوسا تحولت إلى جماجم تملأ المكان من حولها على امتداد بصرها أينما اتجه، بدأت خطواتها في الابتعاد سيرا رويدا رويدا لا تدري مقصدها سوى الهرب من هذا الجحيم، مع صوت تكسر الجماجم تحت هرولة أقدامها تثير فزعا فوق فزع حتى سقطت على وجهها مطلقة صرخة قوية، حين انشقت أمامها إلى نصفين جمجمة خرج منها ثعبان ضخم تتوقد عيناه توهجا بلون حمرة الدم، يعلو إلى السماء ثم تنهال رأسه لنيقض عليها في سرعة رهيبة بارزا أنيابه ولسانه المشقوق فاغرا فاهه على اتساعه، ليقترب ويقترب منها لابتلاعها وهي تشيح بيديها في رعب وتحاول إطلاق صرخة مكتومة وهي تهب فزعة من نومها على فراشها الوثير، تتلفت حولها وتسمع صوت خادمتها "أهو نفس الكابوس سيدتي" .. أومأت برأسها مؤكدة قولها وهي تمد يدها تتناول كوب الماء منها تتجرع رشفات منه، شعرت بغصة في حلقها كأنها تتجرع سم الثعبان المتجسد في كابوسها الليلي.. أعادت الكوب إليها ثم نهضت من فراشها بثوبها القصير عاري الكتفين والصدر، تنظر خلال نافذتها إلى الحديقة الواسعة الممتدة حول القصر الذي قضت فيه طفولتها حتى بدأ يزدهر فيه ريعان شبابها .. كان كل ما حولها يضفي بهجة وبهاء وجمالا وحسنا ، ما ينغص عليها حياتها الكابوس الذي يؤرق

مضجعها كل ليلة ، انتبهت لصوت خادمتها ينتشلها من أفكارها تخبرها بأن حمامها أصبح جاهزا ، حيث كانت آخر ما ألقت به تلك الورود الحمراء التي زينت سطح مياهه .. تباطأت في خطواتها نحو حوض المسبح، انحنت تتحسس بأصابعها دفء مياهه، ثم أسدلت ثوبها ليسقط خلفها في انسيابية، غاصت بجسدها العاري حتى رقبتها وأغمضت عينيها بينما تحرك يديها الماء من حولها يمنة ويسارا، تلتقط أصابعها الورود وترفعها لأعلى ثم تتركها تتساقط من خلالها.. بعدها أحست بأنفاس ندية تقترب من وجهها، ثم تحركت المياه إلى أعلى لتشكل في الهواء ذراعين اقتربا من الإحاطة بجسدها، غير أن صاحب الذراعين التفت بوجهه فجأة ليبصرها تقترب من المسبح بردائها الزهري وتاجها الذهبي بوجه عابس تنهره شفتاها عن القيام بفعلته الشنيعة، فتجهم وجهه ثم رحل مخلفا مياهه التي تساقطت في رحيله الغاضب على أرضية الحواف الأخرى للمسبح، ما لبثت أن أحست بحركة الماء في ذات اللحظة التي فتحت فيها عيناها في ذهول من مرأى المياه التي غمرت المكان من حولها، كأن طوفانا أغرق كل ما حوله، غير أنها أحنت رأسها قليلا إجلالا لحضرة الملكة التي أبصرتها تستدير مغادرة المكان مكفهرة الوجه..

(٢)

بدأ الليل زحفه على صفحة السماء متخللا ما تبقى من ضوء النهار في انسحابه بهدوء تام، تاركا ظلمة الليل تحتل كامل السماء ، حين حاولت هي مقاومة النوم هربا من الكابوس دونما فائدة ترجى، فقد زحف هو الآخر وأسدل بخدره عليها حتى استسلم له جسدها الذي ارتفع إلى أعلى سريرها في هدوء، ثم بغتة طار قاطعا المسافات في سرعة رهيبة خارج القصر عابرا حديقته وصولا لأطراف بعيدة، حيث شيد أركان معبده الخاص، أعمدته شلالات مياه تنساب من أعلى لأسفل ومن أسفل لأعلى في مزيج واحد لا يُعرف بدايته من نهايته، في أعلاه سقف مائي ممزوج معهما .. ثم مدد جسدها في هدوء فوق أرضية المكان وبدأ رذاذ المياه والقطرات البسيطة المتساقطة من سقفه تساعد في إفاقتها ، حتى ما إن فتحت عيناها فأبصرته أمامها بهيئته الحقيقية عاري الجسد ، يقترب منها في هدوء وهي تتراجع إلى الخلف صارخة باسم فتاها عله يأتي لينقذها، بينما بسط هو يده إلى الأمام في الهواء مشيرا إلى ثوبها الذي انسال من فوق جسدها متجها نحو يده، فألقى به أرضا ثم جذبها من ساقيها نحوه، وقد تجرد جسدها من مقاومته حين ضمها إليه في قوة بعد أن باعد بين ساقيها والتحم جسديهما وخارت قواها تماما، استسلمت له كدمية يلهو بها كيفما شاء، حتى

فرغ منها ونهض من فوق جسدها يلتقط أنفاسه اللاهثة في عنف ، حتى باغتته الملكة "هل انتهيت من عبثك الطفولي، إنهن مثل بناتك، تربين وترعرعن في كنفك" ..

" لسن من صلبي ، سأنتهي فور أن تنتهي أنت أيضا من عبثك مع الرجال "

"فليكن .. فهذا أول وآخر لقاء بينكما"، مع آخر حروف كلماتها تمتمت في خفوت "سيدتي الملكة.. أنا .... ، قاطعتها الملكة "كفى"، بينما غادرهو وتلاشى المعبد المائي برحيله وتحول إلى معبد آخر ضخمٌ بنيانه ، صلبة عمدانه ، واسعة أركانه ، زادت ظلمة المكان على ظلمته متشحا بسواد الليل الحالك، تمتمت الملكة قبل رحيلها بكلمات وحروف مبهمة غير مفهومة ، فور اختفائها بدأت جدائل شعرها تنتصب ويكسوها جلد أملس لزج وانشقت أطرافه عن رؤوس من الثعابين أحست بحركتها فاتسعت عيناها في رعب، وقد توهجت في تحول زرقتها إلى اللون الأحمر، يشع البياض من حولها بريقا مخيفا، بدأ جلد سميك آخر زحفه من منتصف صدرها مرورا بوسطها، حتى ما إن وصل إلى ساقيها اللذان التصقا تماما في مواصلة الجلد اللزج رحلته حتى انتهى مخلفا في نهايته ذيل ضخم طويل حاد طرفه ، وقتما ابتلع الظلام والفراغ الرهيب صرختها الأخيرة ..

(٣)

في ظهيرة اليوم التالي، كان فتاها يخطو داخل القصر ببنيانه القوي وعضلاته المفتولة، مرتديا زيه العسكري، واضعا درعه خلف ظهره بينما سيفه في غمده على جانبه الأيمن، باحثا عنها يخبرها بقرب زواجهما بعد أن عاد لتوه من معركته الأخيرة التي انتصر فيها جيشه وأجهز تماما على جيوش الأعداء، ما إن وصل لغرفتها حتى وجدها خاوية فسأل خادمتها فكان ردها بأنها لا تعرف عنها شيئا منذ الصباح، تركها وانطلق إلى الملكة حتى وجدها جالسة على عرشها وحدها بردائها الأبيض وعباءتها الملكية ذات اللون الأحمر يزين رأسها تاجها الذهبي، باديا عليها أنها في انتظار عودته، بادرها بذات السؤال بعد أن قبل يدها، أخبرته على الفور دون مقدمات بأنها خانته وضاجعت غيره غير عابئة بحبه القوي لها، أحس بفوران رأسه وجثا على ركبتيه يسأل متى وكيف ومن هو ذلك الخائن حتى يقتلهما سويا ليثأر لحبه وينتقم لنفسه وقلبه، هدأت من روعه وأنبأته بأنها تخلصت من الخائن وهي الآن حبيسة رذيلتها في مكان ناء بعيد بعد أن ألقت عليها لعنتها وتحولت إلى مسخ، أضافت بأن انتقامه سيحين موعده، هم بقول شيء لولا أن قاطعه دخول الملك عليهما وجلوسه على عرشه وعيناه يملؤها الغضب فانصرف على الفور، بعد أن احنى رأسه إجلالا له وتوقيرا

وتعظيما.. فور انصرافه صرخ في وجه الملكة " ماذا فعلتي بابنتي كما تزعمين، آمرك بإنهاء لعنتك فورا" ..

"لا تقلق، ستزول عما قريب، كتب علي أن اطارد نزواتك وأن ألعن أو أقتل فتياتك واحدة تلو الأخرى" ثم ردد المكان صدى ضحكتها الشيطانية ..

(٤)

دلف إلى المعبد واضعا درعه فوق ظهره، شاهرا سيفه، يستكشف المكان من حوله بخطواته الوئيدة، يحاول جاهدا أن يسيطر على مشاعر الرهبة والفزع التي انتابت نفسه، بل زاد فزعه وكاد أن يبلغ منتهاه وينخلع قلبه من مكانه، بعد أن ارتد من حلقه شهقة قوية فور رؤيته تماثيل حجرية يطل من أعين أصحابها رعب قاتل، حاول ثانية أن يتمالك نفسه يتبين ملامحهم عله يستشف سر فزعهم وسر تحولهم إلى حجارة صماء على هذا النحو المخيف، لم يدرك آخر الأمر سوى أنهم جنود دلته عليهم هيئتهم وسيوفهم الملقاة بجوارهم، في ذات اللحظة عاد الرعب يدب في قلبه حين استشعر حركة ما خلفه والتقطت أذناه صوت فحيح قوي ملأ صداه المكان .. في اللحظة التي استدار فيها بعد أن خلع درعه ثم شهر سيفه متحفزا لمقاتلة ذلك الشيء، رأى طرف ذيل يزحف

ويختفي خلف أحد الأعمدة، خف حينئذ دبيب الرعب الزاحف إلى قلبه ظنا أنه سيطارد ثعبانا ضخما، سيقضي عليه حتما بضربة واحدة من سيفه لابد أن تكون خاطفة وقوية تفصل رأسه عن جسده "هكذا حدث نفسه"، في الوقت الذي دار فيه الذيل دورة واحدة في الهواء ليعاود الظهور ثانية من جديد أمام عينيه التي جحظتا في قوة، حين تسلق الذيل جسده ثم انقض عليه بغتة يعتصره في قوة تأوه لها الجندي، وهو يرتفع في الهواء باستدارة ليجد نفسه في المواجهة أمام بقية الجسد .. يحاول عبثا تخليص جسده من الذيل، حتى سمع صوتا أنثويا ناعما صادرا منه، فتوقف عن حركاته مذهولا حين أبصر صدرا أنثويا بارزا في وضوح حتى وإن كسا نصفه ذلك الجلد، تباينت مشاعره في مزيج عجيب بين الذهول والرعب منتهيا بسحر اقتلع قلبه من بين أضلعه، حين سلب عقله جمال وجهها الأخاذ "لست من أنتظر"، انتزعته عبارتها من سحرها الذي تملكه، ثم أطلق صرخة رعب أخيرة هائلة حين فغرت فاها مطلقة فحيحا قويا بالتزامن مع بريقا مرعبا انطلق من عينيها إلى عينيه التي خبا منها بريق الحياة ، وسكنت حركات جسده رويدا رويدا وهو يتبدل إلى صنم من الحجارة الصماء .. عاد كل شيء إلى طبيعته، هدأت بعد أن وصل لمسامعها صوتا آخر "إنه أنا من تنتظرين .. آمرك أن تتركيه فورا "، قال كلماته الأخيرة ولم يكن

يدرك أن ضحيتها فارقت الحياة، فقد كان ينظر إلى انعكاس صورتها على درعه البادي كمرآة، في الوقت الذي تبينت فيه الصوت جيدا وتذكرت صاحبه، فتردد في المكان صدى ضحكتها الساخرة، وهي تسحب ذيلها في قوة مما مكن من تحطيم الجسد الحجري المعلق في الهواء إلى أجزاء من الحجارة تناثرت هنا وهناك، محدثة صوتا قويا في ارتطامها وقت سقوطها على الأرض لتتفتت ما تبقى منها .. بينما تذكر هو ذلك الجسد وقتما كان بضا طريا يحتويه بين ذراعيه في ضمته الحانية فتمتم في خفوت "عقاب مرضي لخيانتها لي .. ظهرت على حقيقتها المتجسدة في مسخ بشع المنظر نتيجة فجورها" .. اعتلى وجهها الغضب " حذاري مما تقول .. اسمع همسك البغيض، ألم تسأل نفسك عن السبب فيما صرت إليه ولم، ألم يكن ذلك الجسد باعثا لراحة نفسك وطمأنينة روحك بين أحضانه عند عودتك من كل معركة تثاقلت رأسك بهمومها من صراع رهيب، بين صرخات بعض قتلاك وتوسلات البعض الآخر بأن ترحمهم ليعودوا لأطفالهم الصغار، قبل أن تجز بسيفك أعناقهم غير عابئ أو مكترث لهم، ألم تغمض عينيك بين صدري تخفي بداخله وجوه من صرعتهم وهي تطرد النوم منها وتؤرق مضجعك كل ليلة، ولا تهدأ حتى تختلط أنفاسي بأنفاسك اللاهثة وقد هدأ خوفها ورعبها من حديث ظنونك أن لا

يد لهم سوى أحلام ملوكهم في إرسالهم إلى جحيم المعارك فساقتهم أقدارهم تحت حواف نصل سيفك..

"ثم أتت النهاية بالخيانة الموصومة بالعار البادية آثارها المفجعة على جسدك الممسوخ بعد أن أطلقت الملكة عليك لعنتها وقتلت شريك خيانتك"، مع آخر حروف كلماته رآها تطرق رأسها إلى أسفل شاردة الذهن من أثر عبارته الأخيرة، فقفز قفزة في الهواء ودار حول نفسه وسيفه يشق الهواء منطلقا نحو عنقها في اللحظة التي رفعت رأسها، قبل أن تطلق فحيحها المخيف وتبصره عيناها ويتبدل لونها لينتهي به المطاف إلى حجر أصم، كان السيف قد بلغ بغيته واجتز عنقها كاملا ليسقط الرأس وتسكن حركات الذيل بجوار الجسد الذي سقط بدوره قبل أن يعود سيرته الأولى جسدا أنثويا عاريا، كأن اللعنة زالت بموتها ..

ثم عاد بعد أن انتقم لحبه وثأر لقلبه، وها هو قد قضى على فجور وخيانة من أحبها ذات يوم، ليلقي برأسها تحت أقدام الملكة..

لغة الصمت

لم تكن نفسي تواقة لعشق البدايات، إلا عشق صداقتي لذلك الجار، كان بمفرده دنيا مختلفة مغلفة بالصمت.

كانت بداية صداقتنا وتعارفنا بعد أن انتقلت إلى مسكني الجديد، في نفس الشارع الذي يسكنه، إلا أن البداية الحقيقية يوم أن أسرعت بالنزول إلى شارعنا تحديدا نحو إحدى البنايات، كان لا يفصلها عن مسكني سوى مجموعة أخرى لا أذكر عددها فعليا، فقد شعرت وقت أن شبت النيران بإحدى شققها أنها قريبة جدا، قلصت سرعني تلك المسافة إلى لا شيء ، خاصة أن الشقة المشتعلة بلهيب النيران كانت بالأدوار القريبة من الأرض ..

استطاع سكان الشارع بأكمله بل الحي كله إن صح التعبير بانتشال أصحابها من الداخل، لم يكن عددهم يزيد عن امرأة مسنة، وأخرى تناهز الثلاثين من عمرها وطفلتين، بعد أن خمدت النيران وهدأت أنفاسنا التقيت به كتفا بكتف، شكرني على صنيعي مشيرا إلى استحسان ما قمت به..

تعددت لقاءاتنا بعد ذلك بحكم جيرتنا ، تعلمت منه ما استعصى عليَّ إدراكه من تلك الثرثرة التي تخرج من أفواه الناس

ملآنة بكثير من الصخب ، تعلمت الكثير من لغة الصمت التي كانت أصدق من الصوت ، لكن الجهد الأكبر الذي بذلته هو الوصول لتلك الحياة الخالية من ضجيج واقعنا المرير..

سعيت جاهدا ان أضيف إلى لغاتي لغة الشفاه، حركتها وانسيابية حروفها، تقرأها العين ولا تسمعها الأذن مطلقاً، اشتاقت نفسي في كثير من الأحيان لذلك الصمت الذي يغلف حياته فحسدته عليه ..

ذات مرة كنت أحاول فهم ما تمليه عليَّ شفتاه وحركات يديه في حديث يُرى ولا يسمع، لا ينقله الهواء المعلق في المسافة بين شرفة مسكني وشرفته، حين أقبلت وقتها زوجته تحدثه بذات اللغة، أخذتني الحيرة في أمرها، هل هي أتعس النساء لأن قلبها لم يخفق ذات مرة لسماع أذنيها أحاديث الغزل من زوجها كمثيلاتها، أم هي أسعد النساء بأن أنعم عليها بزوج لا يطرب غيرها كما يطربها بمعسول الكلام، غير عينيه التي دوما تتعلق بها، بإشارات يديها وحركات شفتيها، لا يشيح بوجهه عنها ليسمع حديثها بأذن غير واعية، أو بقلب غير عابئ بحديث مسموع ينطق به لسانها، عن حب أم اضطرار لا يهم، المهم هو حب التعلق وشغف النظرات ..

استوقفني شاب ذات مرة، يشير إليَّ بيده لانتبه إليه ثم يعود فيشير بسبابته إلى ورقة يحملها بيده الأخرى مرسوم فيها صور

متعددة لحركات يد تختلف أفعالها ومعانيها من رسمة لأخرى ومن يد لغيره ، احتارت عيني في النظر بين ورقته وبين يديه، تداخلت الأيادي لترسم صورة مشوشة بعقلي لا يتضح منها شيء، فقمت بتحيته شاكرا عرضه الذي لم أفهم منه شيئا وقتها، إلا أنني في مرة تالية حين رأيته وقد أشاح عني بوجهه، فلم يكن يسعى لإضاعة وقته معي، غير أني قبلت عرضه هذه المرة وأشرت إليه بالشكر بلغته وفهمت منه آيات الامتنان التي عبر عنها..

عكفت على تعلم الكثير والكثير عن لغة الصمت والهدوء الآخذة للعقل، بعيدا عن هذا العالم بجنون أمنياته وهمجية أحاديثه، في أوقات حربه وسلامه، صخب موسيقاه التي تقود إلى الكآبة والعزلة بدلا من الهدوء والراحة ..

عشت بعدها واضعا في أذني ما يحجبها عن العالم الذي أحيا به، أهيم في ذلك العالم الآخر الهادئ، لم أعد أبالي بما يحدث حولي، من وقائع وأحداث لم أعد أسمع لها صوتا ولم أعد أتفاعل معها، لم أجد حلا لتذبذب أصابني بالحيرة والتردد بين عالمين مختلفين، سوى الأمنيات والتمني بمغادرة عالمي القديم في هدوء إلى عالم آخر..

الابن

ارتمى على صدر أمه في محاولة يائسة ليتجرع بعض قطرات من لبنها الممزوج بالدم المندفع في غزارة من جرح غائر أحدثه سهم قاتل نفذ بأعلى رقبتها، ممددة على الأرض تحاول جاهدة أن تفتح عينيها علها ترى في لحظات احتضارها ما سيؤول إليه مصيره، وقت مجيء أحدهم فالتقطه بيده ثم مسح الدم الذي غطى جزءا كبيرا من جسده الصغير، لفظت أنفاسها الأخيرة في راحة وطمأنينة، فثمة من انتشل صغيرها كي لا يلقى نفس المصير.

عاد الرجل إلى بيته حاملا ذلك الصغير فوضعه بجوار ابنه ذو العشرة أعوام وهو يسرد له قصته ، فتذكر الابن يتمه هو الآخر بوفاة أمه ، أصبحا الآن يتشاركان مستقبلا واحدا تطويه مشاعر اليتم وفقدان الأم ، لحظات الدفء والحنان التي حرم منها في اللحظة التي تنفس فيها نسمات الحياة للمرة الأولى بينما لفظت هي أنفاسها الأخيرة ..

أصبح الآن له رفيق يؤنس وحدته، لغياب أبيه للكثير من الوقت، بحثا عن سبل الرزق لإعاشتهما، بل زاد الأمر على تكفله برعاية شئون الوافد الجديد صغير السن.. كان كل ما يشغله في رفقتهما معا أن يتمكن من الوقوف على قدميه، بعد محاولات عديدة تمكن الصغير من الوقوف مثله على قدمين اثنتين للحظات معدودة للغاية، ثم ارتمى في أحضانه بعدها وسقطا سويا على الأرض، بدأت رحلة صداقة يغلفها حب ممزوج بمشاعر اليتم لموت الأم وغياب الأب، مشاعر عدة تقاسماها سويا منذ نعومة أظفارهما.

مرت السنوات عليهما، كبرا سويا، لم يكن ثمة ما فرقهما طيلة السنوات الماضية، غير ذات يوم عاد والده من رحلة صيده اليومي وبحثه عن رزقهم جميعا، وجدهما ممددين على الأرض، بلغ منهما التعب مبلغه، حتى غطًّا في نوم عميق، لم يشعرا بقدومه، حتى في قربه منهما كثيرا، أراد أن يوقظ ابنه أولا ، إلا أنه توقف حين لاحظ بعض آثار مخالب على ذراعيه خلفت دماء بسيطة من أثر جروح خفيفة تحرك بسرعة إلى القبو، ذلك الذي لم يلجه بعد مجيء ذلك الشبل سوى بأشهر قليلة، نزع غطاء كان يخفي قفصا كبيرا، ألقاه بداخله ثم أغلق الباب بإحكام ..

استيقظ الابن بعد سويعات قليلة، وجد نفسه نائما بمفرده، بحث عن رفيقه فلم يجده، سأل أبيه فأخبره بمكانه بالقبو، هرع إليه على الفور، وجده حبيس قفص حديدي، صرخ في قوة وهو يحاول جاهدا فتح الباب وفك أسره حتى أصابه اليأس والعجز، جلس أمامه يبكي، وقتها زأر هو لأول مرة في قوة انتفض لها الأب، فأسرع إلى القبو ظنا منه أن ابنه في خطر عظيم، رأى ابنه يبكي والأسد الصغير الذي كبر لحد مخيف، يحاول أن يفك أسره بنفسه بضربات قوية على الباب الحديدي لكن دونما فائدة.. انتبه الابن في بكائه لوجود أبيه، نظر إليه وفي عينيه ألف سؤال عن سبب ذلك السجن الذي فرق بينهما، ألم يكفه أن فرق القدر بين كل منهما وأمه، ألم يكن كافيا الحرمان من مشاعر أمومة لم يتجرعها أيا منهما، ليتجرعا ألم الفراق بعد الألفة التي نشأت بينهما، ذلك الحب الذي يحيط بهما كسياج مانع لهما من غدرات الحياة، ألم يكن كافيا أيضا أن يكون هو الابن محروما من أبيه في وجوده. لم يزد الأب عن إشارته لآثار المخالب على ذراعيه وكفي ..

يكتفي الأب يوميا بإحضار الطعام لهما آخر الليل وهو يفكر في الخلاص منه ، لكنه كان ينتظر على أمل أن يزداد عود ابنه قوة حتى يكون عونا له في رحلات صيده ، منتظرا أيضا كبر الأسد وموته

، وقتها ستنتهي كل الآلام .. لكن الابن كان يبحث عن طريقة لفتح القفص وتخليص صاحبه ، يتحرك أمامه جيئة وذهابا ، ثم ينخرط في البكاء الذي ينتزع قلب الأب حين يسمع نوبات بكاءه ليلا ، حتى يغتاله النوم بغتة أمام قفص الأسد الذي بلغ من الكبر مبلغه ومن القوة أشدها ، يحتضن أسوار محبسه جاهدا يحاول ملامسة جسد صديقه ، لا يُعرف أيهما يواسي الآخر..

ذات مساء عاد الأب، ذهب إلى القبو ليلقى نظرة على ابنه، الذي بلغ مبلغ الرجال، كان ظنه أن تلك القسوة سيولد منها رجلا ذا بأس لا يهاب الصعاب ولا يخشى مواجهة الوحوش الضارية في البرية، ظن أن قسوة الزمان عليه ستجعله رجلا قويا لا يشق له غبار يستند على ساعديه، يريده مثله تماما، وها هو قد أمات نفسه حيا بعد موت زوجته، أبى أن يحضر له زوجة أب تذيقه ويلات العذاب ، أو تقوم بتدليله إرضاء له ، انتهت ذكرياته الممزوجة بأحلامه التي يأملها فور ولوجه إلى القبو ، كان مضيئا كعادته ، لا ينطفئ مصباحه إلا عند الظهيرة ، صاح على ابنه ولا مجيب ، خطا خطوات وئيدة حتى وصل إلى القفص الذي كان فارغا وبابه مفتوحا على مصراعيه ، لم يجد أية آثار لدماء تصدق على ظنونه التي راودته ، لكنه أحس بصوت أقدام تأتي من خلفه ،

استدار فجأة ثم ارتد إلى الوراء فزعا حين أبصره ، بينما تقدم هو نحوه ثم زأر في قوة وهو ينقض عليه بضربة واحدة لم يتحملها الأب وخر صريعا ، ثم نظر إلى الأعلى حيث كان صاحبه يراقب المشهد بأكمله من فوق سطح البيت ، بعدها نزل مباشرة ، أحضر أدواته وبدأ يحفر حفرة أسقط فيها جثة أبيه ثم هال عليه التراب، احتضن صاحبه في قوة مربتا على رأسه ودلفا سويا إلى البيت ثم شرعا في تحطيم القفص ..

صندوق رسائل

حين تنتهي أمي من تمشيط شعري وصنع الضفائر على جانبيه، انطلق بعدها إلى غرفتي، افتح صندوقي الخاص، كل واحدة تحتفظ بواحد مثله في غرفتها، تضع فيه ما تستعيره من أمها خفية من أدوات زينتها. إلا أنني أُخرج منه الرسائل الخاصة بأبي .. هذا ما استعيره من أمي خفية ، بعد أن تحكي لي ما كان يرسله لها من رسائل أثناء الحرب .. فهي تقص عليَّ رسالة في مساء اليوم الأخير من كل اسبوع ، قبل أن أذهب إلى غرفتي لأنام .. هذا قبل أن تنقطع رسائله بعد أن مات في الحرب .. " الحرب التي تحصد أرواح من نحب ، لكنهم سيبقون في وجداننا ، نحي ذكراهم ولا يمكن أن ننساهم أبدا مهما طال بنا العمر" .. هكذا كانت تقول لي بعد ان تنهي قراءة كل رسالة ، انتظر نومها حتى استعير تلك الرسالة وأضعها في صندوقي الخاص ، بدأت افعل ذلك بعد أن بدأ أبي يسأل عني في رسائله بعد معرفته بولادتي ، هو لم يكن موجودا يومها لكن أمي قالت لي بأنها أرسلت إليه الخبر .. سألتها وأين الرسائل التي ترسلينها لأبي ، لم لا تحتفظين بهذه الرسائل أيضا .. ابتسمت لي ولم تخبرني بشيء .. أصبحت اسأل نفسي هذا السؤال

كلما قرأت لي رسالة .. قبل أن انطلق بعدها كعادتي إلى غرفتي التي توجد في الطابق الأعلى من البيت ، هو بيت جدي لأمي .. انتقلت إليه بعد أن ذهب أبي للحرب .. بعد مكوثنا في البيت بعام واحد أصبحت وحيدة أنا وأمي بعد موت جدي .. سألت أمي .. هل مات جدي في الحرب أيضا .. رأيت دموعا تسيل على خدها ولم تجب سؤالي .. قررت ألا أذكر كلمة الحرب أمام أمي أبدا .. لكن أصبح الآن لدي سؤالان لم أعرف لهما إجابة .. فأنا الطفلة ذات الأعوام السبع .. كيف أعرف تلك الإجابات التي لا يعرفها الكبار.. لا يهم فسوف تصل جدتي لأبي لتسكن معنا .. فالبيت كبير وهي تعيش بمفردها .. لكن السبب الحقيقي هو أن ترعى شئوني .. فقد اضطرت أمي للعمل لتنفق علينا.. جاءت جدتي لترعى شئوني .. عليَّ أن انتظر بضعة أيام وبعدها أبدأ أول أيامي في المدرسة .. مرت تلك الأيام وبدأت أولى أيام المدرسة .. أحببتها كثيرا .. كنت أعود منها أنام وأصحو لأجد أمي قد عادت من عملها .. تكررت الأيام وكانت سهلة وجميلة .. غير أنه في نهاية العام الدراسي كما أخبرونا وفي آخر أوقاتنا بالمدرسة سألتنا المعلمة .. " إن كان هنالك لأي واحدة منا سؤالا لا تعرف إجابته وتحب أن تعرف فلتسألها وسوف تجيبها على الفور " سألت زميلاتي من حولي أسئلة كثيرة غريبة بعض الشيء .. حتى أن البعض منهن سألن عن كم عمر المعلمة ،

والبعض الآخر سألها إن كان لديها أبناء وبنات في مثل أعمارهن .. وحان دوري حين قررت أن أكون آخر من يسأل .. مهلا أنا لا أريد أن أسأل السؤالين القديمين اللذان كانا يشغلان عقلي من قبل ، ماذا عن رسائل أمي لأبي؟ وهل مات جدي في الحرب عندما كان عمري عاما واحدا أحاول فيه الزحف على الأرض كما أخبرتني أمي؟ .. لكني سألت سؤالا غريبا وجديدا لأول مرة أفكر فيه .. كنت رافعة يدي لأسأل .. انتبهت إلى المعلمة تنادي باسمي وتنظر إلى منتظرة سؤالي فسألتها بسرعة خوفا من أن ينتهي دوري .. لماذا علينا أن نحارب؟ ولماذا مات أبي في الحرب؟ لم تبتسم المعلمة أو تبكي كما فعلت أمي .. لكنها لم تجب مثلها .. فقط أدارت وجهها بعيدا ، فأدركت وقتها أن الكبار لا يعرفون شيئا مثلنا نحن الصغار ..

وميض الحياة الذي تلاشى

كان على وشك أن يعتذر عن التأخير في الرد، إلا أنه توقف فور أن بدأ أخوه الحديث، حديثا هاتفيا بدا غير مفهوم للسرعة التي كان يتحدث بها، في نهاية كلماته أيقن أنه على وشك أن يغادر الحياة، هو الآن في لحظاته الأخيرة، بدت خطواته ثقيلة وبطيئة وهو يغادر عمله، قاد سيارته نحو بيت العائلة بالسرعة التي اعتادها دوما، وما اعتاد عليه لا ينبئ أبدا بفداحة المصاب الذي ألمَّ بهم .. الموت يرفرف بأجنحته فوق أبيه الممدد على سريره ، لم يغادره منذ أن نهش المرض جسده وبدأت قواه تخور حتى تيقن الجميع أنها مسألة وقت لا أكثر، فقد انسحبت الحياة من جسده في سرعة إلى غير رجعة .. أوشك على مغادرة الدنيا إلى مثواه الأخير.. عاود هاتفه الملقى بجواره إلى إصدار رنينه المزعج الذي لا يفتأ يهدأ أو ينتهي، ما بين اتصال وآخر هدنة لا تتعدى ثوان معدودة، يرمقه بين الحين والآخر بلمحة سريعة كلما ورد اتصال جديد يتبين هوية المتصل، الشخص الوحيد الذي لم يرد منه أي اتصال هي أمه. تساءل في أعماقه عن حالها في هذه اللحظات المريرة التي تمر بها .. الزوج وعشرة أعوام عديدة تكاد تنتهي وتتلاشى .. الفاصل دقائق أو أقل

من يدري .. تذكره لأمه جعله يسرع بعض الشيء عله يكون بجوارها في الموعد يواسيها في محنتها العصيبة ..

وصل إلى المنزل ، تجاوز الباب المفتوح .. بدا المكان مزدحما .. العائلة بأكملها تحتل ردهة المنزل ، التقاه كل من مر به بنظرة حزن ، لكن عيناه كانتا تبحثان عن أمه وسط هذا الحشد المتشح معظمه بالسواد علامة الموت والحزن ، فلا يجوز أن نودع موتانا دون سواد نرتديه .. أسرع الخطى إلى غرفة أبيه، وجدها بجواره تبكي في صمت مرير، هو جثة بلا حراك مغطاة بملاءة بيضاء .. شعر أن كلاهما كان بلا حراك .. أسرع يعانق أمه وقد زاد بكائها في أحضانه ..

وارى أباه الثرى في مثواه الأبدي .. وقف أمام شاهد قبره بجوار أخيه ومن اصطف معهم يتلقون العزاء ، وقد خيم الليل عليهم وبلغ بأجسادهم الجهد مبلغه وأنهكهم التعب .. وإذ به يلمح نورا قويا يصدر من خلف أرض المقابر.. تلفت حوله لعله يلمح أحدهم يرى ما يراه ، لكن يبدو أن لا أحد غيره أبصر ما رأت عيناه رغم قوة الضوء .. فانسل من بينهم سائرا باتجاه النور عله يستشف أسبابه أو ما ورائه ..

غمره الضوء كلية، اختفى داخله واحتواه بالكامل، لم يعد يرى سواه يأتي من كل اتجاه، حتى تبين في الفراغ شخصا واقفا يمد

يده إليه، اقترب أكثر فأكثر فرأى أباه يشير إليه ويطلب منه الاقتراب نحوه أكثر، لكنه كلما اقترب كان هو يتلاشى تدريجيا، حثه ذلك على الإسراع في خطواته ليمسك بيده الممدودة إليه، لكن التلاشي كان أسرع منه، وبقي وحده يتلفت حوله في الفراغ والضوء يغمره من كل جانب، حتى تبين بابا مفتوحا أمامه ..

عبر الباب في سرعة فإذا بأبيه يقف نفس وقفته السابقة لكن جسده قد اعترته انحناءة بسيطة ويشير إليه بالاقتراب كعهده دوما، خطا نحوه بأسرع من المرة الماضية، لكنه تلاشى أيضا وقت وصوله، ثم ظهر مكانه على الفور باب آخر عبره فوجده أيضا يقف على بعد ذات المسافة لكن ظهره انحنى أكثر وبدا أكثر وهنا وضعفا. أسرع إليه على الفور ، لكنه اختفى ..

باب آخر عبره ليجده جالسا على حافة سرير خشبي ، ينظر إلى الفراغ من أمامه ولا يراه ، يمد يده إليه ، تقدم هذه المرة بخطى بطيئة على غير العادة ، بالرغم من ذلك فقد تلاشى أيضا واختفى حتى قبل أن يصل إلى منتصف المسافة بينهما .. أغضبه ذلك التلاشي ، أزعجته تلك الأبواب التي تظهر فجأة واحدا تلو الآخر ، غير أنه لا سبيل سوى عبورها ، هذه المرة وجده ممدا على الفراش مسندا ظهره على سريره مادا يده نحوه كالعادة ، لكنها كانت ترتعش من شدة ضعفه وهو يحاول جاهدا أن يبقيها على حالها قدر

المستطاع ، تسمر مكانه للحظات لا يدري ما يفعل ؟ أيسير ببطء أم يعدو إليه ؟ كلتا الحالتين لا تجديان نفعا ، ودوما يتلاشى .. قبل أن يحسم أمره ، كان قد اختفى بعد أن سقطت يده بجواره ..

حين عبر الباب هذه المرة ، كان النور قد تلاشى حتى بات منعدما إلا من هالة حول جسد أبيه المسجى على فراشه .. حوله جمع من الناس قليل ، بجواره تبكي أمه ، تقدم خطوة تتبعها أخرى ، ولا شيء بدا عليه أنه يتلاشى حتى ساد الظلام من حوله تماما .. لم يعد بالإمكان أن يُبصر شيئا .. انتبه وقتها إلى أحد زملائه في العمل يربت على كتفه ويشير إلى هاتفه الذي لم يتوقف رنينه ، وحين رآه شاردا شاحب الوجه سأله إن كان بخير أم أن هناك أمرا يعتريه .. أومأ برأسه أنه بخير ثم لملم أشيائه وانطلق في سرعة إلى البيت ، ما إن وصل حتى أسرع بأقصى طاقته إلى غرفة أبيه دون أن يعير اهتماما للجمع الذي ملأ البيت من حوله ، كان معظمهم يرتدي ملابس سوداء أضفت على المكان ظلمة رغم ضوء النهار.. حين وصل وجد أمه وإخوته يبكون حول جسد أبيهم المسجى تغطيه ملاءة بيضاء .. فتقدم نحو حافة سريره ثم انتظر مخافة أن تتلاشى الوجوه أو يتلاشى المكان من حوله .. لكن شيئا من هذا لم يحدث ..

موت هادئ

بخطوات هادئة، تصعد الدرجات المعدودة إلى الطابق الأعلى بمنزلها، تمسك بيد صغيرها، ترمقه بين الحين والآخر، تحاول جاهدة أن ترسم على ثغرها ابتسامة كلما نظر إليها، تذكرت يوم أن كانت بمثل عُمره، تعيش بمدينة بعيدة عن هنا، في ذاك المنزل في كنف والديها، لم تحظ بسنوات كثيرة مع والدها، لم ترتو من عناقه لها وقبلاته التي يغدقها عليها حين يذهب إلى عمله وحين يعود وقد غلبها النوم، في سنواته الأخيرة البائسة كان قعيد الفراش يصارع مرضا لعينا لا يعرف الرحمة، تجلس بجواره لا تبارح مكانها، تمسك بيده تحاول تخفيف آلامه حين ينظر إليها فيرى ابتسامتها، وهي تنظر إليه وتمسح عرقه المتصبب فوق جبينه، في عينيها تضرعا وتوسلا بأن يقاوم ويقاوم ليبقى معها، صراع يائس في معركة لا أمل فيها، فقد أبى إلا الرحيل عن دنياها حين بلغت العاشرة من عمرها، كم كانت أوقاتهما معا قليلة وقصيرة مضت في سرعة كالبرق، ثم تحول ذلك الحب نحو أمها البائسة التي غادر زوجها الحياة مُبكرا وتركها وحيدة، تواجه هي وطفلتها الصغيرة أعباء الحياة في رحلة معاناة أشد قسوة من رحلة صراعه حين استجمع مرضه كل قواه في المعركة الأخيرة بينهما، بالرغم من وطأة رحلة مرضه إلا أنها كانت قصيرة ليست كرحلة

أمها منذ سقوطه فريسة للآلام والأوجاع، حتى اشتدت دروب معاناتها بعد أن وارت جثته الثرى.

أنهت صعودها ثم بدأت رحلة أخرى في ممر طويل بنهايته غرفة صغيرها، ذكريات أخرى تراءت أمامها، سنوات الجامعة والسكن مع زميلاتها وأصدقائها، سنوات من السعادة أطلت عليها رغم الجفاء الذي أصاب علاقتها بأمها، ثم بدأت رحلة أخرى مع الحروف والكلمات، حين نثرتهما على الأوراق بالحبر الأزرق والأسود وألوان الطباعة المختلفة، تخط بيديها لترسم طريقا براقا، لمعت فيه كتاباتها شعرا وقصصا، والبداية مقالاتها التي نشرت أول ما نشرت بالجامعة.

وصلت إلى الغرفة المنشودة، ووصلت بذكرياتها إلى يوم أن طرق قلبها الحب، ففتحت بابه على مصراعيه، لم يكن تسللا بطيئا ناعما، بل كان إعصارا من العشق اقتحمه بكامل قوته، دخل إليه واستقر على عروش فؤادها.. لا زالت تلك الذكريات تلعب برأسها وقتما أدخلت صغيرها إلى غرفته، أجلسته ليلعب وجلست بجواره تنظر إليه، تُحضر له الألعاب من حولها، تعانقه وتقبله، تطيل العناق وتكثر من قبلاتها، يلعب هو في مرح وسرور ملأ وجهه سعادة وهناء، تسللت إلى قلبها سعادته، ترقرقت عيناها بدمع انحدر على وجنتيها، فهربت خلسة من دموعها إلى يوم زفافها بالرجل الذي اختاره قلبها، زميلها الذي صار زوجا حنونا ملأ دنياها، وقف إلى جوارها واهتم بأهوائها وصغائر أفعالها، ساندها بكل ما يملك من قوة في طريقها وعايش قصصها ورواياتها رغم براعته في ذات

المجال، إلا أنه آثر أن يحتويها وينكر ذاته من أجلها، قابلت ذلك عشقا ومنحته قلبا لا ينبض إلا بحبه ولا شيء سواه.

مرت بهما السنوات وأنجبا ولدا آية في الحسن والجمال، فاتجهت نحوه في ذات اللحظة، تعانقه وتغدق عليه مزيدا من القبلات، داعبت يدها خصلات شعره المنسدلة على وجهه، قبلت لآخر مرة رأسه ووجهه ونهضت من فورها عازمة على الخروج، تنظر إليه نظرة وداع، وهو غير عابء بها بل انشغل أكثر بأدوات اللعب واللهو من حوله وبما بين يديه، تركته لاهٍ بما يصنع وخرجت من غرفته وقد تأكدت أنها أوصدت عليه الباب جيدا.

تقدمت نحو حافة الدرج تنظر إلى الأسفل، ثم حركت قدما على أول درجة تعقبها أخرى، سنة وراء سنة وبداية رحلة الضياع وهبوط سنواتها نحو منحدر الحياة لتستقر في القاع، سنوات قصيرة حفلت بأحداث جسام، حب وعشق، زواج وطفل جميل المُحيا هاديء الطباع، من ثم يلقي بنفسه في أحضان أخرى، ليست كالأخريات، إنها صديقة عمرها ورفيقة دربها، جمعتهما الصداقة منذ أن التحقا سويا بالجامعة، لم يكن بإمكانها أن تتقبل الغدر وأن يتحمل قلبها تلك الطعنة، تذكرت وهي تهبط درجات السلم، كيف كان كالسهم في سرعته لينقذها وقتما سنحت لها فرصة حاولت فيها إنهاء مأساتها ذات مرة، مرة أخرى كان بجوارها في المشفى، رأتها تجلس على الطرف الآخر من سريرها، رأت في عينيها لهفة لا تدري هل تتمنى لها الموت سريعا، لتخلو بزوجها، أم تتصنع الخوف عليها؟ تاهت نظراتها بينهما، لا يعرفان أنها تدرك الحقيقة

الكامنة التي استعرت نارها فأحرقت فؤادها، غيرتها على حبيبها وزوجها، لكنها لم تكن تسعى للثأر منهما، وأن ترد لهما الطعنة طعنات واحدة تلو الأخرى، بل سعت لترك دنياها، أن تتركهما يسعيان لبعضهما علانية دون التواري في الخفاء، لم يقف صغيرها حائلا بينها وبين الموت أو دافعا للبقاء، شهرتها لم تثنيها عن سعيها للخلاص، لم تستطع أن تمثل دور إحدى بطلات قصصها وتسع للانتقام منهما، أو تقتله بنظراتها عله يدرك أنها تعلم ما يخفيه عنها، أو أن تعيش دور الزوجة المخدوعة من أجل استمرار حياة زائفة، آثرت أن تنهي حياتها مرة تلو المرة، مرات من الفشل الذريع تحاصرها، تتعجب كيف لبطلاتها النجاح، وهي من ترسم لهم ذاك الطريق وتكتب قصص حياتهم وموتهم.

وصلت إلى الردهة، وقفت تتلفت حولها، انتابتها لحظات من القلق والخوف، لا تريده أن يصل في اللحظة المعهودة، لا تريده بطلا ينقذها من الموت، بعدما أدمى قلبها، وسحق سنوات عُمرها، نعم كانت تحكي له الكثير عن كتاباتها ومؤلفاتها، وتساءلت "هل آلمه ذلك؟ هل كان يزعجه أحيانا؟ ربما كنت أنا الملومة على ما وصل إليه".. ثم تحركت في أرجاء الردهة تنظر إلى الأشياء من حولها أو لعلها تلقي نظرة أخيرة، حتى وصلت إلى جدار الصور، أطالت وقفتها أمامه، تمعن النظر في كل صورة على حدا، تستعيد تلك اللحظات التي التقطت بها، هنا صور زفافها، رقصتها الأولى معه، هنا قبلها، وهذه التقطها لها وهي تكتب باديا عليها التركيز الشديد، كأنها في دنيا أخرى وليست معه، عاتبت نفسها لماذا لم تنظر إليه

وقتها؟ وهذه لها وتلك وهي تفعل كذا وكذا، صورا عديدة لها بمفردها، لا توجد له صورة بمفرده التقطتها له، ألهذا الحد أهملته ولم تكن تفكر فيه؟ هل تلتقط صديقتها له صورا؟ هل تهتم بما لم تفعله؟ ثم أتت عينيها على صور صغيرها، ألقت نظرة إلى الأعلى، ثم عادت سريعا إلى الجدار، تلك الإطارات التي تغلق على الصور والذكريات.. تساءلت لماذا تؤجل مهمتها؟ هل تنتظر عودته؟ ليثنيها عن رغبتها، هل سيصارحها بما فعله وتسامحه على الفور؟ ستغفر له دون تردد.. فليأتي إليها ولن تطلب منه أن يقر بالذنب ويرجو مغفرتها، بل ستحكي له عن عثراتها وتقصيرها في حقه، سترحل عن عالم الخيالات والقصص والروايات من أجله.. تذكرت فكرة الرحيل، عضت شفتيها في أسف، وامتعض وجهها وانقبض قلبها، لا مفر من ذلك الطريق، لم تعد تجدي محاولات استعادة الجميع، فقد رحلوا، أمها تأبى المجيء تؤنس وحشتها، فضلت الوحدة على ابنتها الوحيدة، هو لا يعود إليها إلا متأخرا، تفوح منه رائحة عطر صديقتها.. لا سبيل إلا لما أضمرته في نفسها، فأسرعت إلى القبو، كل شيء مُعد سلفا، الكرسي في المنتصف، كل ما يمكن أن يحترق معها أو من أجلها بعيد عنها، ألقت بالمزيد من المادة العازلة في شكل دائري على بُعد أمتار قليلة منها.. جلست دون قيد يكبلها، فقد ضاقت عليها الحياة وقيدتها الخيانة، لم يعد لها متسع فيها ولا ترغب بها، رغبتها تسلب حريتها، تريد التحرر من كل شيء، نظرت إلى الأعلى تتمنى لنظرتها أن تتخطى الحواجز لترى صغيرها في لحظة وداع أخيرة، ستشتاق إليه ويؤلمه رحيلها.. تنهدت

بعمق تستنشق آخر نسمات الحياة لتستقبل الموت، أخرجت أعواد الثقاب من جيبها، أشعلت واحدا، وأشعل معها لهيب دموعها فذرفتها ساخنة حارة انسالت على وجنتيها، ألقت بالعود المشتعل أسفل منها فوق بقعة سوداء، زحفت النيران في سرعة وقوة إلى أعلى، كتمت صرخاتها لئلا تجرح كبريائها، في لحظات الوداع تريد موتا هادئا صامتا، استعرت النيران في قوة غيظا وكمدا لصمتها حتى أحالت الجسد إلى رماد..

رحلة حياة

لفظته عاريا فوق أرض خشنة الملمس، نبذته إلى حين، ألقت به أمام طبيعة وحشية قاسية، أُرغم على مواجهتها، رياحها الباردة تعتصر أضلعه وتحطم عظامه، شمسها تحرق جلده. تحرك من مكانه، يخطو خطواته الأولى يتحسس موضع أقدامه، يتعثر ويسقط وينهض، ثم بدأ يعدو، يقتات لقمة من هنا، شربة ماء من هناك، يغشاه الليل بظلمته ويحتل أبعد مما تصل إليه عيناه .. ثم تطبق جفونه، حين يضنيه التعب، يتكور ويضم ساقيه بذراعيه أشبه بنومته القديمة. يصحو ليكرر ما فعله بالأمس، يوما بعده آخر، تمضي الأيام في سرعة عدوه. حتى التقاها، تشبهه كثيرا، الرأس والوجه، الجسد، الذراعين والساقين، تفحص هيئتها، تختلف عنه، لا يعرف لِمَ هي مواضع الاختلاف، يخطو نحوها، يمد يده إليها، يتعثر، كاد أن يسقط، تلتقفه في أحضانها، ملمسها كان بضا طريا، انتصبت هامته من جديد، الدماء في عروقه تجري سريعا، احتضنها، أصبح بداخلها، أحاطت جسده، ضمته بقوة حين انتفض بغتة، غلبهما النوم لا يدريان متى، أيقظتهما حرارة الشمس، ودعها على أمل العودة واللقاء، عاد عدوه الأول بأكثر مما

مضى، اللقمة أصحبت اثنتان، جرعة الماء زادت، بنى لها ما يأويها ويحميها من قيظ الصيف وبرد الشتاء، يلقي بهمومه آخر الليل، يذهب كده وتعبه، حين يدفن رأسه بين أحضانها، وهي تحتويه وتضمه إليها بحنان وشوق، تنسيه قسوة الطبيعة ووحشة الحياة .. تتحسس بطنها تكبريوما بعد يوم ، يعود من رحلته قبل أن يسدل الليل أستاره ، فيراها ، يضمها إليه ويقبلها ويقبل بطنها وما تحتويه ، ينتظر الأيام بشغف، لتأتي له بمن يتكأ عليه وقت شدتها ووقت ضعفه .. العدو صار يضنيه، لكن فرحتهم تنسيه ما يعتريه، ينظر إليهم مبتسما وينظر إليها بإعجاب وهم يكبرون من حوله .. يذهبون ويعودون بالطعام، حين أقعدته سنوات مرت وتركت آثارها عليه، ملامح وجهه تتغير، لم يعد يعدو كما السابق، كانت خطواته تزحف نحو أرض نبذته في الماضي، دفعته ودفعت أيامه، صارينظر إليها والشوق والحنين يسبقه إلى باطنها .. حتى جاء يوم الرحيل فودعهم جميعا، ودعوه وأعينهم تذرف الدمع الكثير، خارت قواه، ضعفت قدرته على التحمل، هلعت نفوسهم وجزعوا، وقتما سقط أمامهم على الأرض، حين أقبلت بضمتها تحتويه.

في الختام

يقول إيكو "في السرد نطمح إلى تمثيل الحياة في كامل هشاشتها " إن الكتاب يطلبون من قرّائهم تبنّي حلاً ما، ولكنهم لا يقدّمون لهم صيغة جاهزة.

لا شك أن القصة القصيرة فن ذاتي؛ لأنها صوت الكاتب؛ بزمنها المحدد وشخوصها، وحدثها المعروض، تعالج قضية ما أو تلقي الضوء على سلبيات بعينها، يسلط لنا الكاتب الضوء عليها عبر القص. وما مِن شك في أن مجموعة (مرت بجانبي) القصصية هي متن سردي يلامس الواقع برؤية خيالية تضمر في كنهها التمرّد عليه، ومحاولة الطَّوفان فوقه بالرفض والممانعة، فهي تجربة حياتية تكلف بها الإنسان في واقعيته الحياتية في ظهور رمزي أو إشاري على أن الخيط الواصل بين قصص المجموعة يتجلى في ثلاثية (الحياة، الوجود، الإنسانية) التي أجاد القاص في استدعائها، ومن ثم مهرها سردياً بالخيال والرؤية الواعية المتمثلة في التوظيف الذكي للاسقاطات، والاستخدام البارع للرمزية.

ولعلّ افتتاح المجموعة بذات القصة التي تحمل عنوان المجموعة، والتي تشي بأجواء المجموعة ومصائر شخصياتها، وإذا كانت قصة "مرت بجانبي" تعالج الموضوع الأشد إلحاحاً على الكاتب والمتمثل في الثلاثية المشار إليها آنفا، والتي يطرح العديد من التساؤلات على ألسنة أبطالها بين الفلسفية والواقعية لمجتمع قاس غير قابل للتفسير..

يتجلى من خلال قصص تشظي الإنسان في علاقته مع الواقع زمانياً ومكانياً، وفي علاقاته الإنسانية مع الآخرين. في قصة "القصة الأخيرة" نرى انكساراً اجتماعياً من خلال انهيار القيمة الإبداعية وضياع الهوية الثقافية مقابل المادة، وفي قصة "الصندوق" يتضح ضياع المباديء وتفتتها واستبدال الرموز مثل "رابطة الدم والأخوة" بأخرى وافدة، في إشارةٍ ذكية إلى ضياع الانتماء

وتنتمي قصة "الابن" إلى قصص المحبة الانسانية التي لا تصل إلى مبتغاها الطبيعي، رغم براءة العاطفة، والقصص لا تنتهي فقط عند الحالة الوجدانية والشعورية لأبطال القصص يعانون الهزيمة في مجتمعهم وزمنهم! وتتعرض لتفاصيلهم الأكثر حميمية وذاتية في قصة "وميض الحياة الذي تلاشى"، لشاب يعاني من أحلام الرؤى المستقبلية، والتى في إحداها يترائى له والده يودع الحياة راحلاً. أيضا ينتفي الفضاء المكاني والزماني الذي تتحرك فيه الشخصيات، وتجري ضمنه الأحداث وترتبط بالحدث؛ فأحداث قصة "في زمن الحرب" المكان فيها ليس مجرد تأثيث حيادي للحدث، إنما هو موقفٌ واضحٌ من المسميات، ومن الجغرافيا، في نصٍّ يدور حول قضية العروبة والانتماء، وهي الانكسار الأشدّ إيلاماً في مجمل القص. يواصل الكاتب في بحثه عن أسباب الانكسار ليصل إلى آفاقٍ فلسفية، ففي قصته الجميلة "صندوق رسائل" ومن خلاله يطرح الراوي سؤالاً هامًا: لماذا علينا أن نحارب؟ وهل خلق الإنسان وهو يحمل بذور القتل في مورّثاته؟ وهل وجودنا سوي لا يختلف عن أيّ وجودٍ آخر، أم نحن من كسرناه بما فعلناه، ومافعله الآخرون بنا؟

ويلاحظ في معظم قصص المجموعة غياب أسماء الشخصيات، وهذا يوسّع فضاء القصة، فلا تبقى الحكاية حكاية شخصٍ بذاته، هي حكايات قد يعيشها أو يعايشها أي إنسان، فلكلّ إنسانٍ انكساره الخاص، وإن اختلف شكله، أو سببه.

وفي القصة التي تحمل عنوان "لغة الصمت" يظهر انحياز الراوي لخيار بطله بالانسحاب من صخب الحياةٍ المزدحمة، حيث يروي بطله بداية تعرفه بالجار الأبكم وزوجته التي تحادثه بلغة الاشارة، وكيف قرر بمنتهى الأريحية الصمم الاختياري؛ ليتجنب جنون العالم وهمجيته وصخبه!

تكتمل جمالية اللغة السردية من تشبيهات وصور شعريّة عذبة في "رحلة حياة"، بصورة مكتنزة إيحاءً وتعبيرًا عن النهج الفلسفي الوجودي لفكر الكاتب؛ فالكاتب ذو ملكة فكرية عقلانية، يهتم بعملية التحليل النفسي كثيرا في شخصياته، يمنح قلمه من بئر عميق من الثقافات والتجارب الحياتية والقرائية، يميل في كتاباته إلى التفصيل لا الإجمال لينقل القارئ إلى خلفيات القصص واستنتاج ما لم يقال من خلال سطح المشهد وعمق المعنى والحالة الشعورية.. جاءت لغة القصص لغة حيادية مرنة، طوّعها الكاتب تطويعاً وظيفياً وجمالياً أقرب للشخصية، ولواقعها مكانياً وزمانياً، بالرغم من اختلاف مستوياتها، وتنوعها.

وجاء استخدامه لأنماط السرد من ضمير المتكلم ليجذب القارئ تجاه التوحد مع البطل الذي يتحدث بلسان حاله ومقاله، أو يتكئ على سرد الغائب حتى ينظر القارئ إلى المشهد من خارج دائرة الأحداث فيكون قادرا على التحليل والتأويل؛ فطبيعة القص الحكائي في هذه

المجموعة القصصية تجمع –في توازن ملحوظ- بين أساليب السرد الكلاسيكي المصقولة لغويا بعناية، وبين لغة العصر التى لا يجد القارئ فيها إشكاليات أو مفردات معجمية تقطع متعة القراءة، فجمعت بين الأصالة والتجديد في نسق ممتع متناسق، وعبرت عن قضايا الانسان المعاصر بالتزام الواقعية في بعضها، ومضيفة في البعض الآخر مساحات من التخييل، فخرج العمل جيّداً ممتعا.. الروائي والقاص (أحمد معوض) عمله الأول هي روايته "النقطة المميتة"، وتعد مجموعته "مرت بجانبي" هي العمل الثاني له، وهي تضم ثلاثة عشر قصة قصيرة مكتوبة بقلمٍ رصين له ثيماته، من كاتبٍ حصيف، ذكي، وله قدرة على تخطي المألوف من السرد.

أ. مشعل العبادي - الرياض

مواليد ١٩٨٣ بكالوريوس آداب

لا يمكن أن أقدّم نفسي بأكثر من عاشق للأدب العربي

مع محاولات خجولة لدعم بعض المبدعين والمبدعات فيه ..

وطرح بعض الأفكار التي تسهم في تنشيط الحركة الأدبية ..

الفهرس

مرت بجانبي	٧
الانسحاب	١١
الصندوق	١٣
القصة الأخيرة	٢٩
في زمن الحرب	٣٥
ثلاثون يوما	٤١
جُند الملك	٤٧
لعنة الملوك	٦٩
لغة الصمت	٧٩
الابن	٨٣
صندوق رسائل	٨٩
وميض الحياة الذي تلاشى	٩٣
موت هادئ	٩٧
رحلة حياة	١٠٣
في الختام	١٠٥

نبذة عن المؤلف

احمد معوض احمد قاسم

كلية الآداب – قسم تاريخ – جامعة القاهرة
مواليد القاهرة / مارس ١٩٧٥
رقم الهاتف : ٠١٠٦١٥٧٠٩٥٨ – ٠١٠٢٠٢٢٢١٥٣
البريد الالكتروني : amdesign39@gmail.com

الاعمال المنشورة سابقا :

رواية النقطة المميتة – معرض الكتاب ٢٠١٨
المشاركة بقصة : لعنة الملوك في عمل جماعي باسم خبايا الروح عن دارنهر الكتب – معرض الكتاب ٢٠١٩
صندوق رسائل في عمل جماعي باسم رسائل حائرة عن دارنهر الكتب – معرض الكتاب ٢٠١٩